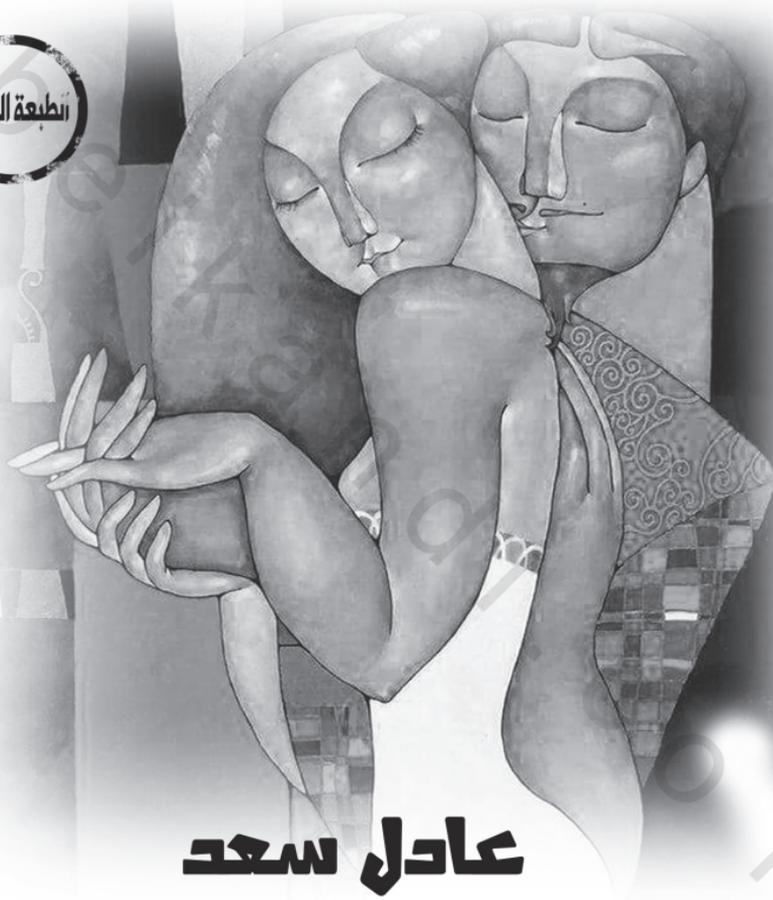


رمضان المسيحي

الطبعة الثانية



عادل سعد

دار نشر

أبناء روسيا

Russia News

www.russiannewsar.com

الناشر

أنداء روسيا
Russia News

www.russiannewsar.com

رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير

د. حسين الشافعي

secertary_ert@yahoo.com

المراسلات

القاهرة - مدينة العبور

44971 مكتب بريد جمعية أحمد

عربي - ص.ب. 72

Tel. & Fax: + (202) 24698170 & 071

+ (20) 01006774027

الإخراج الفني / أحمد عثمان

أسرة التحرير / شيماء محمد - منى فرج

الطباعة

دار الطباعة المتميزة

مدينة العبور - القاهرة

Tel. & Fax: + (202) 4478 96 44 & 46

بالتعاون مع



المؤسسة المصرية الروسية
للثقافة والعلوم

Египетско-российский
Фонд культуры и наук

www.arfcs.org

الطبعة الأولى 2015

روايات الهلال - دار الهلال

الطبعة الثانية 2017

دار نشر أنباء روسيا

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر.

لا يحق إعادة طبع أو نسخ محتويات هذا الكتاب

إلكترونياً أو ضوئياً دونما إذن كتابي من الناشر.

رقم الإيداع : 1079 / 2017

لترقيم الدولي : 2 - 1720 - 07 - 977 - 978

عادل سعد

رمضان امسيحي

دار نشر



أخبار روسيا

Russia News
russiannewsar.com

www.russiannewsar.com

قال المغفل للمغفول: إزاي نكون إحنا من الطين،

ونستحمى.. ولا ندوبشي

ف البحر أما كلام مجانين؟!

سوح بقى سيدنا المغفول.. وكان معاه ف الرد حريص..

قال له: صحيح إحنا من الطين..

بس احنا من طين البلايص».

شاعر مدينتنا عم جلال علما.

كتب تلك الكلمات، ولم يحقق أي شهرة، ومات.

ونحن من أبناء تلك البلد البعيدة أسيوط، ولدتنا أمهاتنا فقراء، لكننا

عشنا..

نقلي قشر البطيخ، ونبيعه للغرباء على أنه سمك فيليه، ويتهموننا

بالبخل، وبأن قرد وأسيوطي خرباً مدينته، وأحياناً يقعدون أمام التليفزيون؛

ليتفرجوا علينا، ويحبسوننا في ذلك القفص المضيء من الحديد وتتجدد

أحزاننا على من عرفناهم، عند مقارنتهم بمن يقفزون من داخل الجهاز

كالقروود.

محمود العلواني - صديقنا - كان يتدرب يومياً بالجري حافياً - ذهاباً

وعودة - من قريته علوان على بعد ٢٥ كيلومتراً من أسيوط، أجبرناه أن

يحشر أصابع قدميه الحطب في «سبايكس» العدائين؛ حتى لا يفضحنا،

ومع دوران الـ ٤٠٠ متر الأولى من الماراثون رمى الحذاء في وجوهنا، وطار حافياً؛

ليخترق بعد ساعة ونصف الساعة شريط استاد القاهرة، في المركز الأول،

بطلاً لمصر، ضارباً كل من خلفه بأكثر من كيلومتر.

العلواني، أجير في الأرض، وأب لأربعة أطفال.

على طريق أسيوط السريع مرت عربية نقل، على ساقين حسدتهما

الرياح، وانزوى العلواني في قريته المظلمة علوان، مبتور الساقين.

هؤلاء الثيران والحمير، كنت واحداً منهم، بل وشاركت في استفتاء، انتهى بالحكم القائل إن سيد كيلاني جلب العار على أهله ؛ لأنه وفقاً لشهادة الشهود: «يياكل مكرونة ويلبس فانلات نص كم» ولم يعارض أحد باستثناء محمود أبو منجل الذي رفع حاجبيه مستفسراً : « شفته انت ؟ مع مكرونة دي؟».

وفي تلك الأيام سافرت للإسكندرية- وأنا طالب- لأعمل حمالاً بالميناء، وحضرت بالمصادفة مباراة، بين كلية سان مارك، المقامة على الطراز الفرنسي، والتي تخرج فيها الملك حسين عاهل الأردن، ونجم السينما عمر الشريف وصوفيا ملكة أسبانيا ، وقرية درنكة، النائمة ببيوت الطين تحت رمال وكهوف هضبة الجبل الغربي، والتي تخرج فيها خط الصعيد القاتل الشهير، ودفن تحت ترابها الشيخ بخيت الذي لا يسمع عنه أحد.

لم تكن «درنكة» وسكانها الذين يقتلون بعضهم لقطع الوقت، تعرف لماذا يقذفون الكرة الطائرة ويمنعونها من السقوط على الأرض كالمجانين؟ حتى حل أحدهم اللغز، وخطط المربع الوحيد بنادي القرية ونصب شبكة، ولما ضاق الملعب بالمتزاحمين، وفهموا أصول التحكم، انتشرت اللعبة في الحقول، بشد قطعة قماش أو جبل بين نخلتين والباقي ملعب، وصار في درنكة آلاف اللاعبين، وصعدت لتنافس الأهلي والزمالك، وكان من حظي أن أحضر مبارياتها مع سان مارك في الدوري الممتاز.

في ملعب سان مارك، حضرنا أربعة مشجعين فقط لدرنكة، بعد نقضنا وفحصنا من أفراد الأمن بعناية على البوابات، والتأكد من أننا من أصحاب البطاقات، ومن اللحظات الأولى باع أغلبنا القضية، منحازاً لعذوبة مشجعات الفريق المنافس، وغنائهن الجماعي، وداخت عيوننا من دوران الأثداء الناعمة، وانكمشنا أكثر على أنفسنا عند نزول فريق سان مارك الملعب ببديل التدريب الزرقاء الفاخرة، وخلع اللاعبون بالشورت

الرمادي والفانلة الذهبية الصفراء، وبدأ تدريب الضربات الساحقة على الشبكة وارتفعت صيحات الإعجاب.

ووصلت فرقتنا، بالجلابيب، كخيطة من تغريبة عمال التراهيل، باستثناء البعض بالبنطلون والقميص وشبشب، وأمرهم الكوتش أبو ليفة بالتسخين، فخلعوا هلاهيلهم فوق بعضها في كوم، وفوقها - حتى لا تطير - النعال والشباشب والصنادل، وظهر من تحت ستائر الجلابيب سروال وفانلة، يصعب تحديد لونهما، وكان الفريق كل لاعب لون، وأغلب اللاعبين حفاة، وبعضهم نسي أن يخلع عمامته، فانطلقت الضحكات والقفشات في جوانب المدرج.

وعلا صياحهم خشنا كنشارة الخشب: «ديب يا دمال يا ابن الدزمة الدلابية (جيب يا جمال يا ابن الجزمة الجلابية) يا دلال اتدننت؟ (يا جلال اتجننت؟) وهكذا»؛ لأن الأبجدية العربية ٢٨ حرفاً، لكنها في درنكة ٢٧ فقط، ففريقنا - مثل كل قرية درنكة - ينطق الجيم دالاً، ولا أحد يعرف سبب معادتهم لحرف الجيم، لدرجة أنهم لا ينطقونه أبداً، وبالطبع لم يكن هذا وقته؛ ليفهم الحكم - أو غيره - إنها ربما كانت إحدى لهجات قريش أو اليمن، لكن أمكن السيطرة على الموقف.

وكان مع المدرب قلم فلوماستر عريض لكتابة الأرقام على ظهورهم إذا لزم الأمر، وجلب أحدهم كيساً من القماش، تقياً ثلاث كرات مرهقة، ودخلت الملعب أقدام أثارت فزع الأرضية الباركيه؛ لترتفع الأكف الخشنة من العزق والحرق، وتضرب من أعلى الشبكة، كرات كمدافع الهاون، وساد الصالة المغطاة المكيفة الصمت.

وكانت مباراة، ولا أحلى، برغم أنها من طرف واحد، وانضم إلينا أحلى جمهور من بنات الإسكندرية، واكتسح الحفاة الملعب، ووقفوا يجففون عرقهم في جلابيبهم.

لكن كل ما أقوله كلام فارغ؛ لأنه لا يضحك؛ ولأن حياتنا لم تكن كلها انتصارات، بل تعرضنا لهزائم مريرة.

وتلك رواية أخرى، لا أحكيها هنا. لأنها طويلة. عن بعض هؤلاء، عندما سافروا في أواخر السبعينيات لأوروبا، وما جرى هناك.

وسط عدسات التليفزيون، تناول القربان؛ ليولد على الهواء مباشرة مسيحياً من جديد، وبعد مراسم تغطيسه وتعميده، انحنى خاضعاً، ولما نهض رسم البطرك علامة التثليث على صدره، وأعلنت المذبةعة في وقار وهي تتابع طقوس الكنيسة البطيئة: رمضان تذوق قطعة صغيرة ورقيقة من الخبز (البرشان) مغموسة في القليل من الخمر الذي يمثل دم المسيح، ورمضان صار الآن واحداً من أبناء الكنيسة، مسيحياً، تعتمد بيت الرب، وتناول القربان المقدس، ونال بركة «سرافخارستيا»، وحرصاً على حياته، صار في حماية اليونان، ولاجئاً سياسياً؛ لأن الهمج قد يقتلونه كأحد المرتدين.

كان ذلك يتكرر كثيراً، في التليفزيون اليوناني، ويشعرنا بالغضب، الفرق أننا في هذه المرة نعرف رمضان.

الغرب يعتمد إهانتنا، أما رمضان نفسه فقد توقع أن يبصق في وجهي، أو على الأقل يصيح كعادته:

« وانت مال دين أمك؟ »

لكنه كان في آخر المساء يقف على رجل ونصف كالمعتاد عند مقهى ناصية الشارع، يتقي شمس منتصف الليل، بقبعة كابوي أمريكي، لم أر مثلها في أفلام الغرب، حمراء، على معطف أبيض فاخر، حريمي... يعلوه فرو كثيف... وبصدره صفوف من الأزرار النحاس.. وينطلون هيلانكا أخضر وحزام عريض أسود لامع.

وكنت أنوي ألا أتحدث معه، وأتعامل معه باشمزاز واحتقار.

لكنه هو الذي فعل، وبإدراي أمراً متحكماً: «يا تلميذ تعال هنا».

شعرت بالحر، وتوقعت أن يسأل: «هل شاهدت التليفزيون؟».

ورثبت كيف سأهاجمه، لكنه سحبني على طاولة، وأزاح ما عليها
ووضع أمامي أوراقاً وقلماً وقال أكتب:

«الست جمالات حسبو حنفي.

أم فتحي.

البقاء لله.. وأبو فتحي زوجك رمضان قاسم العريجي والمقيم جهتنا في
اليونان مات.

أولاد الحلال دفنوا المرحوم وساعدونا في جمع مستحقاته وبيع
ممتلكاته، ورمضان كان غلبان وشقيان، وكل ما ترك ٢٠ ورقة (الورقة
مئة دولار)؛ لذلك نرسل لكم المبلغ لرعاية أم محمود (أمه) والعيال؛ وحتى
لا يقع المبلغ في أيدي أولاد الحرام وشدي حيلك.

وإنا لله وإنا إليه راجعون».

من طرف: أصدقاء المرحوم

كان الخطاب قصيراً، مقارنة بكل الخطابات السابقة، لكنه مؤثر.

وشعرت بالحزن على موت رمضان، وانتظرت أن يضيف شيئاً، لكنه
عاد ليقول: «كفاية عليهم كده».

قلت: «لكن... لماذا ألفي دولار..؟ يمكنك زيادة خمسين؛ حتى لا
تكون الحكاية مكشوفة، ثم ألا يوجد أحد هنا يعرفك؟.. أقصد ربما
بعد أن تصلهم الفلوس يخبرهم أحد بأنك حي».

صاح هائجاً وهو يتلفت حوله باحثاً: «.. أنا رتبت كل حاجة.. وما
صدقت خلصت.. مين ده؟... وادفع غرامة تاني؟. ده أنا أطلع دين أمه....»

ثم عاد مردداً:

... «همه ما يعرفوش حد من هنا... ولا حد من هنا يعرف حد من هناك...
وبعدين ما يعرفوش يعني إيه دولار.. استريحت يا أستاذ...؟ اكتب بقى
العلوان (العنوان)..... يعني محدش يعرف مكانهم والحكاية دي غير
سيادتك... سامع؟».

في نبرته تهديد... طأطأت رأسي موافقاً، وبصقت على حواف المظروف،
وأغلقتة.

ماتيلدا تحوم على رأس طاولتنا، تتابع الورق وصراخنا، ببطن
عار، ينتفخ أعلى البنطلون الأبيض، وتميل على رمضان؛ لتضغط
ثديها في كتفه؛ بينما قمة مؤخرتها للجميع، ولما كتبت العنوان
وأخذ رمضان المظروف فهمت ماتيلدا أن الشجار بيننا انتهى على خير،
فهمست: «راااااااااااا... إلا ذو»، كانت تقول باليونانية: «رمضان تعال
هنا»، وشعرها الأصفر يسقط على حواجبها المنتوفة وأحمر شفيتها،
وعيناها اللتان تتحرشان بـرمضان..

نظر نحوي ليري تأثير تلهفها عليه، وقال وهو يدس الخطاب بجيب
المعطف: «أنا تعبان... ما تاخذ حنة اللحمه دي وتدبح؟»، نظرت نحوه
ونحوها مرتبكاً.

قال ضاحكاً: «جرب معاها.. دي.. عاوزاه.. على طول.. على طول؛
ومد ذراعه بعلامة النكاح...

فابتسمت وطأطأت برأسها مؤيدة كل ما يقول وقلدت حركة يده.

مد يده من تحت يده الأخرى نحو بطنها؛ ليقرصها.. وقفزت صارخة
وهي تضحك.

رمضان وجماعة العريجية قدامى منطقة تزييفيز... وعندما سكنت مع ثلاثة زملاء عند خالتي تولا.. كان واضحاً أن المنطقة شعبية وفقيرة.. وفي ظهرنا حظائر للخيول وسباق الخيل.

بجوارنا مصري يعمل سائساً معه أسرته وزوجته، الحاج إبراهيم يصلي ويصوم رمضان، وطفلته الصغيرة مها ٥ سنوات تتحدث اليونانية أفضل منا جميعاً، والبنت الكبرى كاليونانيات بالجينز الملون الضيق حتى منتصف الركبة، وتمر أمام حديقتنا، وكان رأي خالتي تولا أن مؤخرتها جميلة.

مقهى العريجية فرض نفسه، فقد كانت ذات تقاليد لا تعبأ بصمت أئينا المقدس من الساعة الثالثة إلى الخامسة عصرًا بحكم القانون، وعامرة طوال الوقت، بسبب الدين والزجاجات التي تطير والمعارك.

أغلب رواد المقهى من العاملين بخدمة الخيول بمضمار السباق، وكلهم كما قال سنقر:

«قمشجية عارف يعني إيه؟ يعني عريجية، لكن لا عندهم عريية ولا حسان.»

المقهى الضيق خمس طاولات، وهو تقريباً «غرزة»، لكن في ساعات الذروة المصرية يتمدد؛ وحتى لا يتعرض صاحب المقهى للقانون يقعد من لا يجد كرسيًا على الرصيف مع الشاي أو القهوة أو الزجاجات وامرأة.

غير ماتيلدا يتردد عشرات على المقهى بعد فشلهم في اصطلياد الزبائن، أغلبهن فوق الأربعين، ويتحرفن بالذكور طوال الوقت، لكن المزاج المصري لا يتحقق إلا بسحب المطاوي لاختطاف واحدة من زميل آخر ومعايرته بذلك أمام الرجال.

«داا غير اللي بتعمله مع الواد اليوناني صاحبك».

في الجزء الأخير علا صوته، وتوقعت أن تبدأ معركة.. وتراجعت قليلاً.. لكن العملاق انتظر.. وصاح على صاحبة المقهى: «..قهوة متريو.. وكاس أوزو للمفضوح بتاعنا».

صاح علي الغتيت.. وكان على المنضدة المجاورة يدفن رأسه في حمالة ثديين لصديقتة غالا العجوز، وهي تبعده في رفق فيعود مرتميا للمفارق؛ ليلاعبها قائلاً: «دامش بتاعك وحدك دaaa بتاعنا كلنا... بتاعنا كلنا».. ومدّ يده كأنها قضيبه... مهدداً وشارحاً لها: «بتاعنا دaaa طلع في التليفزيون».

انتفض رمضان واقفاً، وقذف الكوب في وجه الغتيت.

انقلبت الطاولة... وخرجت هارباً.

وصلت أثينا مع أستاذ جامعة نصاب من أسيوط، مضمون مئة في المئة، هكذا وصفه صديقي محمد صلاح جناح فريق كرة اليد، وفكرت كصانع ألعاب للفريق أن اليونان بفتياتها الفاتنات تنتظرنا.

خمسون شاباً هبطوا على ميدان "أمونيا" بقلب أثينا.

نزلنا من الأتوبيس، في وقت العصر، وخيوط شمس حريرية تداعبنا. وبتوجيهات قائد الرحلة مندوب الدكتور نصار، تدفقنا لميدان "سي دغما" سيراً على الأقدام.

كان الوقت قاتلاً؛ لأننا نتقاطع مع الحوريات جيئةً وذهاباً بفساتينهن القصيرة جداً والشورتات الملتهبة والتي شيرتات الكاشفة للبطون، وأنسجتها القطنية الشفافة تظهر حلقات صدور ساحرة وعيوننا عاجزة عن الملاحقة.

ملامحنا تخشبت وأصابنا صدام جماعي.

سمراء تتبعها شقراء، وهيفاء القوام مع زنجية ساحرة، وبرونزية بلون الشمس، وسيقانهن طويلة وجميلة ونهودهن مشدودة، على ملابس تغري بفك أزرارها.

تحرك القطار الصعيدي في وسط أثينا، مع حقائبنا، وعيوننا، على السيقان والمؤخرات، ومشهد الحرس اليوناني في زيه التقليدي بالتنورة القصيرة والحذاء السفينة والجوارب المطرزة وغطاء الرأس الأحمر والبندقية، يقترب معلناً قرب وصولنا لميدان "سي دغما" الشهير.

من أرض الميدان الفسيح طار الحمام.

ومن زجاج أحد الدكاكين بالميدان هتفت غانية بالعربية: «تعال يا حبيبي».

كانت كما نتمنى، عارية تماماً، وتصلبت دوائر عيوننا على ثدييها المكشوفين وانزلت تحت بطنها، فتوقف القطار.

استدار محمد صلاح كالجش عندما يتعرف على بيته - وأنا خلفه - ودخلنا من باب أشارت عليه من الفاترينة، وشعر الطلاب بالخوف وهتف أحدهم: «رايحين فين؟».

قال صلاح: "إنت مش سامعها بتقول لي يا حبيبي؟؟" «دي عارفاني»، واندفعنا للداخل.

تفحصتنا بائعة الهوى بحقائبنا، ونطقت بكلمات، ولم نفهم، وكان الدور علينا، وألهم الله صلاح ونطق بعبارة يونانية لا نحفظ غيرها: «إيشي دوليا؟» (هل هناك عمل؟) فقالت: «نيه.. نيه». (أي: نعم.. نعم)، للمرة الثانية لم نفهم، واستكمل صلاح قائلاً: «أيشي أوفرتايم؟» (هل هناك وقت عمل إضافي)، فصاحت ساخطة وبدأت تداري عريها وتسب وتلعن، وخرجنا هارين.

علي نصار ينظم رحلة علمية سنوياً، يخاطب جامعة يونانية، ويطلب زيارتها مع الطلاب في الأجازة الصيفية، ويحصل على موافقتها؛ لتفتح أبواب تأشيرة السفارة، وكان الرجل واضحاً من أول لحظة، الفرد الفنان من الجنيات، غير تذاكر السفر، وأسعارها سيحددها زملاء، عقب استيفاء الأوراق، وجواز السفر جماعي، ومن حقك الحصول على صورة منه في أثينا، والإقامة بالفندق ثلاثة أيام بدون أكل، بعدها إنت وشطارتك.

كان يقف بداخل بذلة بنية يعاقب عليها القانون نسيجها يلعب كالزجاج، صعيدياً «شنف»، يربط على جمجمته السوداء بلون التراب

نظارة من البلاستيك الأصفر الرخيص، ومن عنقه النجيل تسقط كرافتة مضغها كلب، ولا يتحدث كثيراً ولا يجادل، وتلك رحلته الخامسة، التي تتكرر سنوياً على التوالي، وفي شركة الدكتور اثنان من الطلبة المعاوين بأسيوط لجمع الأموال والصور وتخليص الأوراق واثنان مثلهما في أثينا لنفس الغرض.

تخصص د. نصار تطوير محاصيل الزراعة، وكان يتعامل معنا كالنباتات، يزرعها ويحصدها، وهكذا بمجرد دخولنا للجامعة، حصل من كل واحد على ألفين من الجنيهات، وألف أخرى زائدة على قيمة الطيران، وكان يربح في رحلة لا يستغرق الإعداد لها أكثر من شهر واحد ربع مليون جنيه، وهو لا يعرف كيف يسكن داخل القميص والبنطلون.

في فندق كوزمو القريب من ميدان سي دغما، كان كل شيء مرتباً وبدأ العد، ووصلنا بمجرد دخولنا الفندق إلى نهاية اليوم الأول من الإقامة، وتسلم كل واحد منا نسخة من جواز السفر الجماعي، وقضى نصار ساعتين في الفندق، تحاسب خلالهما مع الشابين المصريين المكلفين بتخليص الأوراق والفندق في أثينا، وطلبوا جميعاً بيرة، وصعدنا لغرفنا، واختفى نصار.

فتحت النافذة، كان الليل ساكناً، وخفضت الضوء، ووقفت أستنشق الهواء، في النافذة المقابلة، يرسم الضوء البعيد جسدين، راحا يمارسان الحب، على حواف الصيف الرطيب، وهما لا يعرفان أن هناك عينين من إفريقيا الحارة ترقب من الظلام.

انقضت مهلة الأيام الثلاثة، ونحن ندور حول أنفسنا، وبالبحث عشر أهدنا على فندق شعبي رخيص.

كان أمامنا ثلاثة أيام أخرى وبعدها نجوع.

بعد العودة من الشوارع بحثاً عن عمل أو سكن، لم يكن متاحاً سوى قاعة بهو الفندق، نسترخي على مقاعدها الجلدية الناعمة.

على مقاعد الاستراحة في الاستقبال ثلاث فتيات، في الثلاثينيات تقريباً، يرتدين الميكروجيب القطنية الخفيفة، وتي شيرتات تكشف البطن، والحريمنعهن من ارتداء حمالات الصدر، اثنتان منهن بدون ملابس داخلية، ويبدو ذلك واضحاً لكل من ينظر بين سيقانهن.

صلاح كان معي، مستمتعاً بأن تناغش إحداهن الأخرى، وتنكشف الجيب القصيرة، أو يقفز نهد.

خرجت لشراء ساندويتشات، رجعت ولم أجد، وعند غرفتنا، فتح الباب وقال هامساً: «هات الساندويتشات، وانتظر بالخارج وسأحكي لك».

أسمهن غمزت بعينيها وابتسمت، فاقترب منها، وتحدث قليلاً من الإنجليزية، ولم تفهم، أشار لغرفته ليربها شيئاً فوافقت، أغلق الغرفة، وحاول احتضانها وتقبيلاً فقاومت، وجرت واقفة عند الباب، أمسك رأسه، معتذراً، وكأنه داخ وسيسقط، فتراجعت عن الخروج، خلع القميص، وما تحته، ليقف عارياً، وقبل أن تشك في نيته، استدار ودخل في جلاب للنوم، وجلس على حافة السرير واضعاً رأسه بين يديه، وخرجت.

بعد دقائق أدارت مقبض الباب هامسة لتطمئن على صحته، واكتفى بالجلوس على حافة السرير، فاقتربت، بزيتها وعطورها لتداعب رأسه وعرفت مكان الصداع.

عندما خرجنا للبهو كانت مع صديقاتها، تغمز من بعيد، وصديقتها ذهبت معي للغرفة بخدود حمراء.

مواس طالب كلية الزراعة من قرى سوهاج استضافته الثالثة في غرفتها، فقفز، ولما منعه هجم كما الأفلام، فنال رفسة، وحاول السيطرة عليها بتكتيفها وتكميمها. دقائق من الصراخ، وكانت على عينه لكمة وفوق رقبته نسخة من الأظافر.

أثناء الهياج سرقنا بقايا زجاجة مارتيني، تركها بعض الأميركيان، كانت عيوننا عليها، وغافلنا الجميع، وأدخلناها حجرتنا، وانفض الشجار، وظل النادل يفتش في غضب.

إقامتنا تنتهي بعد أسبوع، وبعد أيام من دوران بلا معنى في كل الشوارع بحثاً عن مسكن أو عمل، ونحن لا نعرف كلمة يونانية واحدة، رجعنا خائبين.

في المساء دخل الفندق ثلاثة شبان مصريين، يتحدثون في ثقة، وخرجت لأعبر البهو بالمصادفة مع صلاح، فاستوقفني أحدهم صائحاً: «مش ممكن؟».

ووقفت أمامه حائراً: «ألا تتذكرني؟ أنا عادل فهيم كنت زميلي في المدرسة الإعدادية، ما أخبار الرياضة؟».

عادل القبطي القصير، والنحيف للغاية، لم يمنحني الفرصة لأتذكر. «إنت قاعد ليه هنا؟».

قبل هبوط المساء كنت ومحمد صلاح من سكان "كاليثيا"، بعد سداد أجرة شهر، وفي جيبنا رقم هاتف عادل فريد وبعض الدراخامات، دسها في جيبى وهو يقول: «سوف تسدها بمجرد أن تعمل، وإذا أفلست لا تقلق اتصل وسأحضر في الحال».

ليس في الدنيا أجمل من شوارع «كاليثيا»، ولا السينما الجميلة على ناصية شارعها التجاري، ولا مشاهدة فيلم «عشيق الليدي تشاترلي» للورانس بعيداً عن الرقابة المصرية.

البستاني الخشن صحا على زوجة صاحب القصر، ترقص عارية تحت المطر والبرد، بعد أن تأوهت وذوقت وجع الحب، ويحملها لكوخه الخشي في وسط الغابة ويوسدها ويدفئها ويجففها، ويرسم ثدييها وبطنها وهنأ بزهور برية صغيرة، ويكلل بالورد تاجاً على جبهتها، ويعود ليستنشق عبيرها وردة وردة؛ لتشهق وتنفجر تحته كبركان.

شارعنا شديد الهدوء، ألف متر، وعلى الجانبين أشجار برتقال، وعند كل شجرة، قفص، بداخله عصفور، يغرد لحنأ مختلفأ عن بقية العصافير، وكل عمارة تتفنن في العناية بالأشجار الواقعة في مواجهتها.

في العطلات تفتح البيوت كالشوارع، اليونانيون يسكنون الشرفات، وفي الشقة المائة متر، نصيب الشرفة ثمانون متراً، مزروعة بالنباتات النادرة والزهور والمقاعد البامبو والمساند المريحة، ومن داخل تلك الخميلة، يشاهدون التليفزيون ويتناولون الطعام ويمارسون الحب والرقص والغناء.

في الصباح كان المشهد ساحراً، بألوان البرتقال الزاهية، والأشجار الخضراء، وصوت العصافير، ورموش عيون الفتيات تراقبنا كجيران.

دق جرس الباب، خرجت ولم يكن هناك أحد، كانت أكياسنا للقمامة، عائدة ومغلقة بشكل محكم وعليها رسالة، اتصلنا بعادل، فقال لا داعي لأن أحضر، الحكاية ممنوع أن تضع كناسة مفتوحة أمام الباب، الأمر الثاني جامع القمامة يمر ثلاثة أيام في الأسبوع، هي الأيام المسموح فيها بإخراج المخلفات، بحيث لا يمضي سوى ساعة ويحملها ويمضي؛ وحتى لا تؤثر رائحتها على السلم، أخيراً هناك صندوق أمام باب العمارة للقمامة، والسكان يتناوبون على تنظيفه، كل شقة أسبوع، أعتقد أن هذا ملخص ما كتبه لكم أحد الجيران، على أكياس كناستكم.

استدعت السلطات رمضان؛ لاستكمال أوراق اللجوء السياسي.
وكان ذلك متوقعاً.

سأله المحقق: لماذا لا تغير اسمك؟

شعر بالارتباك، واعتقد أن هناك خطأ ربما يؤدي إلى حبسه، كان منذ يومين مع المحامي، واستفهم منه عن كل الأسئلة المتوقعة.

سأل رمضان بعد أن ابتلع ريقه عن الأسماء المعروضة، وقال إنه لم يمانع، وقال المحقق: «يني باولو باسكليدس يورغو خريستو»، واقترح أن يكون الاسم الأخير،

استفهم رمضان؛ ليكسب مزيداً من الوقت عن معنى خريستو، فقالوا في إكبار إنه اسم السيد المسيح.

أشار بعلامة التثليث على صدره كما علموه.

وقال: اسم عظيم لكن أخاف أن أحمله، فأنا أحب النساء وأدخن.

شرح المترجم ما يقول وعندها ابتسم المحقق.

تشجع رمضان وسأل: وما عيب رمضان؟

قال المحقق: لا يوجد عيب، لكن ما معناه؟

سأل المحقق المترجم طويلاً عن معنى رمضان بالعربية، فقال إن معناها شهر التقرب من السماء بالصيام والصلاة، واعتقد المحقق أنها في العربية تعني الصيام الكبير، وختم على خانة الاسم بالموافقة.

بعدها سأله عن موقف أهله في مصر، وكان يحفظ الإجابة من
المحامي، مرياً بصبغه على عنقه.

فهم المحقق وقال: «تلقيت تهديدات؟».

قال رمضان: «نعم».

قال المحقق: «تحتاج حراسة؟».

قال رمضان: «لا».

أخيراً: «هل لديك هناك زوجة أو أولاد؟».

وكرر رمضان: «لا».

في المساء عاد للمقهى منتصراً بقصة الضحك على المحقق والمحافظة
على إسلامه.

لكن أحداً لم يعد يناديه باسم رمضان، وأصبح خريستو.

خريستو لبانتة، يبصقونها في وجهه بمناسبة وبغير مناسبة، أحدهم
يلعب الدومينو، وقبل أن يكشف الورقة الحاسمة يصيح صارخاً: «يا
ابن الشرموطة يا خريستو.. دومنا هاهاهااااي»، وآخر يدخل من الباب
سائلاً: «حد شاف إستو؟»، بل وتطور الاسم؛ لينغزه أحدهم: «ريحة خرايا
جماعة».. أو يعانق واحدة من النسوان معتذراً: هاهااا لا مؤاخذة يا ستو..
أنا قصدي «خري ستو».

من ضغط البول، أخرجت أسفل بطني مغمضاً، محتقناً أمام المبولة، في الضوء الأحمر الخافت، وسرت رعشة، فتحت عيني؛ لأفرغ القطرات الأخيرة، كان عضوي منتفخاً، وجاري يتظاهر بفك البنطال، عيناه تحملقان فيما يجري، وقد التوت رقبته من المبولة المجاورة.

سينما السكس تعمل ٢٤ ساعة، تتخللها دقائق لتغيير الأشرطة، سألت: ومتى ينتهي الفيلم ونخرج؟ قال رمضان: «دااا ما بيخلصش.. العرض مستمر ولو نفسك تبات خليك هنا... هاهااهااا».

دخلنا الصالة بدون عامل "بلاسير"، القاعة فارغة تقريباً، ولا يزيد المتفرجون على عشرة، وعلى الجوانب أشباح، أحدهم لكزني عند عبوري، وأنا داخل بمنطقة حساسة، وكنت أعمى لم أعتد على الضوء بعد، وقهقه رمضان وهو يسحبني.

كانوا على الشاشة قد عرفوا بحضوري ويخلعون ملابسهم، ومشاهد الإيلاج والضرب على المؤخرة والنوم مع ثلاث نساء في وقت واحد والاعتصاب لا تتوقف.

اشتعل النور للاستراحة دقائق، ولم يكن هناك أحد سوانا، أنا ورمضان نتفرج على الأفلام والباقون لا تعنيهم الشاشة.

تسلل أحدهم، وبمنتهى الذوق والأدب مديده، وطوى إصبع السبابة، وأطلقه في خفة؛ ليصطدم بقضيبي المحتدم، انتبهت، ولكزت رمضان فنهزه صائحاً، فابتعد خجلاً، وقهقه رمضان.

بدأت مضاجعة الحيوانات، لحس الكلاب، وامرأة مع الحمار، واللعب مع القروء، والتهيج من متابعة الأسد ينزو على اللبؤة.

وهتف رمضان: «يا أولاد الوسخة، هاتروحوا جهنم حدف».

انتفخت المثانة واحتقنت من جديد، ذهبت للحمام، حريصاً على تفادي أي اصطدام، مع ثلاثة رجال عيونهم مكحلة يبتسمون وعلى شفاههم روح، ووقفت مفتوح العينين؛ لأتبول.

تذكرت يوم القيامة، وأن ما يحدث ربما يكون إحدى علامات الساعة، وأن كل هؤلاء سيدخلون النار، وأنا معهم؛ لأنني قدمت دعماً لهم بقطع تذكرة بثلاثمائة دراخمة، شعرت بصداغ، ورجعت للمقعد وطلبت من رمضان أن يخرج.

أنعشنا نسيم بارد، خارج سينما روائح البول والحيوانات المنوية.
وقال رمضان: «تعال معي».

كنا على ناصية ميدان "سي دغما"، وانزلقنا إلى شارع "بيريوس"، الغني ببيوت الدعارة.

أمام إحدى ماكينات الحلوى والمشروبات توقف رمضان، وهو يتلفت في حذر وقال: «تشرب إيه»، وقلت من حلقي الجاف: «بيبسي».

خلا الشارع، ومد يده ودس «مفك» تحت الماكينة، وسرى صوت هائل، وتدفقت الدراخمات، وسقط بعضها على الأرض.

الماكينة تبيع مشروبات وأنواعاً من البسكويت للعابرين سريعاً في الشارع بـ ١٠ دراخمات أو خمس، لكنها إن ابتلعت مبلغاً غير مفهوم أو فوق طاقتها تطرده في الحال.

رمضان حضر بالأمس ليلاً، وأغلق فتحة طرد الدراخمات بلبانته، وألصقها بإحكام، وهكذا وبمجرد طرد أول عملة؛ ظلت الدراخمات تتراكم بداخلها، وكل مبلغ جديد يضاف للدراخمات المطلوب طردها،

والعابرون في الطريق للعمل يطلبون الحصول على مشروب عاجل أو قطعة بسكويت، ويدسون العملة المعدنية، وعندما تلتهمها الماكينة ولا تنطق، يحاولون لعدة ثوانٍ الضرب على الماكينة لإيقاظها، وخوفاً من التعطل يرحلون غاضبين.

رمضان نصب الفخ، وعندما مَدَّ يده الخبيرة لسحب اللبانة، وضع يده في كل جيوب العمال، وتدفقت كل الأموال المتأخرة.

وقفت أتبعه خائفاً، وهو يجمع الدراخمات من على أرض الرصيف، لكنه قال: أنا أفعل هذا مرة، ولا أعود للماكينة مرة أخرى قبل شهرين على الأقل.

صاحب الماكينة، يوناني يسدد الضرائب، وعندما تنخفض مبيعاتها، يسب ويلعن.

من المسروقات تناولت عند كريكوس ساندويتشاً من اللحم المختلط بالبصل داخل رغيف من الرقائق، بميدان "أمونيا" مع زجاجة بييرة.

في ميدان "أمونيا" المترامي الأرجاء، تصب أغلب مقابلات الأتوبيسات والترام ومترو الأنفاق في المحطة الرئيسية.

على جانب من الميدان مقهى كبير، نسخة من مقهى الحرية بباب اللوق بوسط القاهرة، بأعمدته العالية المزدهمة بالمرايا، والطاولات الرخامية والكراسي الخشبية.

يوماً ما تسللت داخله، وجلست مستمتعاً، يلعبون الشطرنج، كما في القاهرة، وكنت لاعباً مصنفأ، استأذنت على إحدى الطاولات، لأتفرج.

جلس إلى جوارنا كهل إيراني نحيف في العقد الخامس بشارب، يرتدي جاكيت كاروهات على قميص، ويبدو معتزأ، وبدأ يلقي بعض الملاحظات على اللعب.

قطعت على المقهى طوال النهار، في يوم بلا عمل، وأكلت ساندويتشات.

في المغرب حضر شيخ مسن، وخلع البالطو ووضع على المشجب بجوارنا، وتلفت الجميع، عند وصوله.

على الطاولة بدأ يلعب وكسب لاعبين، وانصرف أحدهم غاضبأ.

عرضت أن ألاعبه ووافق، وهزمني، طلبت تغيير اللون؛ لنلعب الدور الثاني، فقال: لا.. أنا ألعب بفلوس، الدور بمئة دراخمة.

همس الإيراني ذو الشارب في أذني: لا تلعب.

لكنني وافقت، وطلبت قهوة على الريحة.

كنت مسترخياً، وعندما قال ذلك استدعيت كل قدرات التحدي والتركيز.

قال الإيراني بالعربية: هذا الحقيير، كان في المركز الثاني على أبطال اليونان في الشطرنج، وهو الآن يصطاد الزبائن.

انتبه الشيخ وأشار على الإيراني بما معناه ممنوع الكلام والتحليل، فقد بدأ الدور.

انتهينا في الثانية عشرة مساءً، وكنت قد هزمته دورين، وسط فرحة الإيراني العارمة.

انسحب الشيخ منكسراً، ومدَّ يده المرتعشة بالمتة دراخمة الثانية.

قال: «أنت كنت تخدعني وتتظاهر بأنك ضعيف».

ووضع المعطف على جسمه، وضبط القبعة وانصرف.

سألني الإيراني: أين تذهب؟ قلت: لا أعرف.

قال: وماذا تعمل؟ قلت: طالب، وأريد أن أعمل بمصنع، قال: ولماذا لا تعمل معي؟

الأستاذ صدوقي، أحد قيادات حزب «تودة» الشيوعي، ونائب رئيس الإذاعة الإيرانية، كان هارباً من ثورة الخميني، وطاف بألمانيا وتركيا وإنجلترا والكويت، وافتتح مصنعاً في اليونان.

حملتنا سيارة أربحجم علبة الكبريت، توقفنا في أسبرطة، لم يبق من آثار وعضلات مصارعيها حجر، باستثناء قمة تطل على هاوية سحيقة، كانوا يفحصون الأطفال عقب الولادة، وإذا كان بالمولود أي عيب يلقونه من حالق الجبل.

صعدنا «تريبولي» عند أعلى قمم الجبال، على ارتفاع ٤ آلاف متر فوق سطح البحر، والخنفساء يقودها صدوقي بمهارة؛ لتدور صاعدة حول الجبل، وتسبق كل السيارات على الطريق السريع، وكانت الثلوج تخفي تحتها القرية عندما دخلناها ليلاً.

صدوقي يعيش بمفرده، في فيلا من دور واحد، أعطاني بطانية؛ لأنام على مرتبة في إحدى الغرف، وأشعل النار في بقايا خشب، وكان على الأرض رواية كافكا بالألمانية «المحاكمة».

سألته عن العمل والأجر، فنظر نحوي باستغراب.

عن إيمانه بالاشتراكية، قال إنه سافر للاتحاد السوفيتي، بمجرد هروبه من إيران، لكنهم تخوفوا منه، ولهم الحق في ذلك.

في الصباح خرجت لحديقة المنزل، ووسط البرد كانت هناك طائفة واقفة.

على الإفطار قلت: شيوعي ويمتلك طائرة خاصة؟

كنت أمزح، لكنه انفجر...

لا، أنا أحب الطائرات، ولامتلك واحدة لم أستغل العمال، وأصنعها

بنفسي»»»

انتبهت إلى أن الصالمة مزدحمة بأعداد لمجلات أنديّة الطيران.

«صنعت الطائرة قطعة قطعة، «بعريقي»، ومن أجل ذلك درست

الهندسة في ألمانيا.»

كان يتحدث بعض العربية الفصحى، قضى خمس سنوات في

الكويت، وردد أبياتاً للشابي: إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن

يستجيب القدر

قال إن السيارة الحقيبة، التي كان يقودها، سبقت كل السيارات،

لأنه أدخل تعديلات؛ لتصبح سرعتها ٢٥٠ كيلومتراً في الساعة، وقال

إن بإمكانه زيادة سرعتها إلى ٥٠٠ كيلومتر، لولا أن هيكل السيارة

الضعيف لن يتحمل.

قضيت أسبوعاً بلا عمل، نخرج ونحتسي النبيذ، ونرتاد المجتمعات،

ونلعب الشطرنج، ونغازل الفتيات.

صدوقي يصب اللعن على الأفغان: «يحاربون الروس، ويتوضأون؛

بينما سروالهم منتفخ من البول والعفن.»

طلبت أن نذهب للمصنع؛ لنعمل، وكان ينظر نحوي باستغراب.

كبرجوازي حقير.

المصنع، على أطراف الجبل، كان الجو بارداً لدرجة التجمد، وشرح

صدوقي العمل، قوارير عملاقة من مادة البولي إيثيلين، يجري تقطيرها؛

لثُصَبَ في قوالب تحفاً باهظة الثمن.

انفجرت إحدى دوائر الكهرباء، وشرح صدوقي مرة أخرى، أنه ليس برجوازيًا حقيرًا، وعندما قرر امتلاك المصنع، صنع كل الأجهزة والتوصيلات اليدوية بيديه.

بعد يومين رجعنا للمصنع؛ لنبداً العمل، وكان المصنع مفتوحاً في الشارع، نسي صدوقي إغلاق إحدى القوارير الضخمة، وهو يشرح نوعية مادة البولي إيثيلين الخام الشفافة، وخرجنا وأغلق المصنع بإحكام، وظلت المادة تتطاير وتتسرب، ولا تجد منفذاً للخروج، وفي النهاية أطاحت بالجدار، ومزقت ضلعاً من المصنع، وجلس صدوقي مهموماً، فقد كان ذلك معناه أن يبدأ في إعادة بناء ما تحطم من جديد.

حملت حقيبتني، ورجعت أثينا على حافة الإفلاس.

خالتي تولا عقدت اجتماعاً عاجلاً في الحديقة، شرحت الموقف المعقد، لدينا شجرة خوخ وشجرة ليمون، والأزهار والأشجار الصغيرة، كل أسبوع من واجبنا قص الحشائش، وجمع مخلفات أوراق الشجر، وكل يوم نروي الزرع.

سألت عن أسمائنا، وعن عملنا، وفركت يديها سعيدة، عندما عرفت أننا طلبة جامعة، سألت عن أماكن عملنا، واستغرقت في الضحك، على مصطفى، وهو يشرح مكونات سوق الخضار والفاكهة، ومحمد صلاح الخارج من صناديق القمامة في مصنع الورق.

تولا تسكن بالدور الثاني، في غرفتين، ونحن نقيم في أربع غرف بالدور الأرضي، والفيلا تمتلكها ابنتها، وتأكل وتعيش من الإيجار.

عمرها سبعون عاماً، وقصيرة وماكرة كأم كلثوم.

مصطفى صار غرامها من أول يوم، يعود محملاً بجوال من الخضراوات من الشادر، وقبل أن يدخل من بابنا يصعد عند خالته تولا، ويفرش أنواع الخضراوات والفاكهة أمامها؛ لتنتقي ما تريد، ويتحدث معها بلغة عربية إنجليزية يونانية، ليحكي ما جرى هناك من مشكلات وخرافات، وتفهم وتضحك من أعماقها.

مصطفى في الشادر، عامل على منفذ لبيع الفاكهة بالجملة، صار وجهاً معروفاً، عند عودته، يمر على بقية المنافذ؛ ليأخذ ثمريتين من كل نوع، ويضعهما في الجوال؛ ليصل لبيتنا محملاً.

جمعتنا تولا يوم الأحد، وعيوننا شاردة، قالت: «لماذا ليس لديكم صاحبات»،

ضحكنا وقال عاطف: «هذا حرام».

نظرت في شك نحونا وسألت: «ولا حتى قبلات وأحضان؟».

فوق حديقتنا تطل من النافذة غزالة يونانية، لا نحلم بأن نراها في أحلامنا،

أشارت عليها تولا أن تنزل، وقالت إنها سترتدي ملابسها، وأنزلت بالسلة «تاكى»؛ ليسبقها، مخلوق ثقيل الحركة، ما بين الفأر والأرنب، ناصع الألوان، ذهبي على أبيض، ووضعناه في منتصف الحديقة على الحشائش، كانت سولا - ١٥ عاما - ترتدي ملابسها قطعة قطعة، وتخرج في كل مرحلة؛ لتصبح: «تاكى» للاطمئنان عليه وحتى يشعر بأنها إلى جواره.

وفي النهاية داهمت حديقتنا، بشورت قصير جداً، وتي شيرت لا يغطي سوى صدرها، ورقدت على الأرض؛ لتلاعب «تاكى» وبطنها الفاتن وظهرها يلمعان في الشمس.

كنا نسمع صوت سولا تناغي «تاكى» طوال الوقت بنعومة بالغة من شرفتها، ونظن أنه أحد عشاقها؛ لأنها تعاتبه، وتغضب من تصرفاته.

بعد انصراف البنت، عبرت بنت عم إبراهيم، بنت سانس الخيل، وكانت على الطريقة المصرية تترقص من الخلف، ورفعت خالتي تولا حواجبها معجبة بمؤخرتها، وسألت: هل يمكن لأحدكم أن يتزوج يونانية؟

أجاب الشيخ عيسى، وكان صامتاً طوال الوقت: ممكن ولكننا نشترط أن تكون عذراء.

استفهمت خالتي تولا طويلاً عن معنى كلمة عذراء، ولما عرفت شردت بعيداً.

حاولت مشاكستها قائلاً: «هل عندك جميلة وعذراء من أجلي؟»
فقال ضاحكاً: «لاااا ابتعد».

وتجمعنا حولها، ونحن نصر على أن تجيب.

قالت: «موجودة، عذراء من الأمام، وخريانة من الخلف».

سولا اعتادت أن تزورنا بحضور خالتي تولا، التي تغمز لنا ضاحكة، بأن جسمها جميل، كانت ترتدي بنطلوناً أبيض شفافاً من القطن، وبطنها العاري تتوسطه سرّة تبارك الخلاق ونرى مفاتن صدرها بوضوح.

همس مصطفى لخالتي تولا، بأن سولا لا ترتدي شيئاً تحت البنطلون، ترجمت خالتي تولا السؤال لها، فانتفض مصطفى مذعوراً.

وبعد مناقشات بينهن وهمس، التفتت سولا نحونا ضاحكة؛ لتقول:
«نعم لا ارتدي لباس تحتاني».

نظرنا لأنفسنا، لكنها سألت: «ما فائدة هذه القطعة، إنها للضرورة، في أوقات محددة، وباستثناء ذلك أخلعها منعاً للتسلخ».

قلت ضاحكاً: «أنتن لا ترتدين سوى حبال رفيعة وصغيرة جداً».

قالت: وأنتم في مصر؟

قلت: واووو.

وبدأت أشرح لها أركان ومعالَم لباسنا العظيم «أبودكّة»، الذي بإمكانه أن يغلق الشارع، وأسرار حباله العميقة وخباياه وفوائده الصحية وقدراته على العوم بمفرده، وخالتي تولا مغرقة في الضحك بينما سولا لا تصدق أن هذا الكلام صحيح.

في دكان لبيع الخضار والفاكهة، جريت أن أطيّر على موتوسيكل،
لتوصيل الطلبات.

ويوم وصولي تشاجر صاحب المحل مع عامل يوناني وطرده.

لم يكن دكاناً اعتيادياً، كان يبيع أفخر أنواع الفاكهة، بأسعار
مرتفعة.

وكنت معجباً بمطعم، قالوا إنه أفخر مطاعم أثينا، أزوره في الصباح؛
لأفرغ بداخله الفاكهة والخضراوات وقت تنظيف العمال للمكان، كان
في الطابق السابع، وفي منتصف المطعم نخلة عملاقة، تزينت بباقات من
البصل والثوم.

وحملتني العناوين لبناية أخرى، دخلتها وطلبت رقم الطابق
بالأسانسير، وفوجئت بأن المصعد الخشبي الجميل، يفتح على قوقعة
وردية، خرجت منها؛ لأجد شقتين، إحداهما دقت عليها الجرس، وعلى
الأخرى كان يقف حارس يوناني بملابسه التقليدية: التنورة المربعات
القصيرة فوق الركبة والجوارب البيضاء والحذاء السفينة والكاب
القرمزي والسيف.

أدخلت الخضار والفاكهة للمطبخ، وسألت صاحبة البيت هامساً: من
يسكن هناك؟

مطت شفيتها قائلة: كارامانليس.

رئيس الجمهورية.

رجعت للدكان، ومن بعيد لمحت تجمهراً، وأشارت يد أعرفها أن ابتعد.

كان البوليس السياحي يبحث عني، بعد أن أبلغ اليوناني.

ابتعدت كثيراً، وحضرت بعد يومين وتقاضيت الحساب.

في مصنع الزبادي كان الوضع مختلفاً، نساء فوق الثلاثين، يتحرشن بي، كان الأجر ضعيفاً، والعمل مناسباً لبنات حواء، ورائحة المصنع لا تُطاق، وحكيته لسولا، ولم أستمّر طويلاً.

من الأتوبيس شاهدت مظاهرة حاشدة، عشرات الآلاف من الطلبة يتظاهرون.

كنت قد نجحت في الحصول على عمل بمصنع بلاستيك، ومن الزجاج تتبععت اللافتات، المظاهرة للتضامن مع عشرات الطلاب المحتجزين بسجون الأمن في جامعة أسيوط.

(كابا كابا ابسيلون)، الشيوعيون أصواتهم عالية، ويتقدمون الصفوف، لكن بلا شعبية.

اندفع الأتوبيس، محلقاً في الشوارع، بجدران مصنوعة من الزجاج، كان خالياً تقريباً من الركاب، إلا من عجوز وصديقتها تتسامران، وصعد للأتوبيس فتاتان، بميكرو جيب قصير لدرجة التعري، وقمصان مربوطة على البطن ومفتوحة الصدر، ومالت واحدة فتدفق نهداها، وكادت تسقط وتأوهت الأخرى، وكأنها تغنج على الفراش، ولما أنقذتها قبلتها من فمها، فأشارت إحدى العجوزين بعلامة التثليث والتفتت لصديقتها والتوت شفتاها.

لمحت إحدى الفتيات ما حدث، وهمست لصاحبيتها، واقتربتا من العجوزين، وأسمعتهما وصلت، لا تحتاج ترجمة، وفهمت أنهما يعايرانها هي وصديقتها بأن ساكن فخذيها خشب، وثديها يبصق صراصير، وأنها تذهب للمقسييس الذي يمارس العادة السرية، ويعلمهما التثليث؛ لأنه عاجز، وهو كل ما تبقى لهما.

لم يتدخل السائق، ومن شدة الهجوم دق زر المحطة القادمة، ونزل العجوزان من الأتوبيس.

مجدي، يعمل في مصنع نجارة، على منشار خشب آلي، سعيدا كان يدفع الخشبية؛ لتنشط داخل الآلة، وعندما نظر خلفه؛ ليداعب إحدى

العاملات، تطايرت أصابعه الثلاثة، وعاش بيننا ثلاثة أشهر، صاحب المصنع وافق على تعويضه بسخاء، مقابل عدم اللجوء للشرطة والقانون، وعاد إلى مصر.

في مصنع البلاستيك، وقفت أمام الماكينة الألمانية، مضى وقت، منذ حضرت إلى هنا، كنت وحيداً في نوبة المساء، مع اثنين من الباكستانيين، كنت تقريباً رئيس الوردية.

نيكو حضر بعد ساعتين ضاحكاً؛ ليسأل: كيف الحال؟

وقلت: كل شيء تمام.

الماكينة تعمل بشكل أوتوماتيكي لإنتاج أشكال من البلاستيك، وكنت أديرها بنجاح، بحيث تعمل بلا توقف، وبلا تدخل يدوي.

سعيداً تناول المقشدة، وبدأ ينظف من حولي، قلت له هذا لا يصح هذا عملي.

قال مبتسماً: لا.. لا.. اتركه لي، فأنا أريد تنشيط نفسي.

الخارج من الحرب العالمية الثانية بدرجة عريف، أحد شركاء ثلاثة يمتلكون المصنع، لديه ثلاث سيارات فاخرة، لكنه يحضر المصنع بسيارة ممزقة، وفي إحدى الورديات صدمتها ناقلة ضخمة، وتهشم الباب، لم يرحل مبكراً، وظل يعمل، وقبل أن ينبجج الصباح استدعاني؛ ليسألني: "ما رأيك؟" كان قد صنع باباً جديداً.

دعاني نيكو لزيارة مزرعته، كان في العقد الخامس، وبين الزيتون وأشجار التين والعنب، قضيت يوماً ممتعاً مع طفليتيه الصغيرتين وزوجته،

كان عمر الطفلتين لا يزيد على عشر سنوات، تزوج متأخراً، وكان قلقاً على مستقبل البنيتين، ويعمل كثيراً.

في منتصف المساء، أستقل المترو لأصل للأتوبيس للوصول للمصنع، معي حسان، وقبل وصولنا للمصنع، أمامنا وقت طويل، قلت لحسان: سأتفرج على بيوت الدعارة فقال: "إنت متعرفشي ربنا".

دخلت أحد البيوت، خرجت العجوز، قالت البنت صغيرة جميلة، تسمح بتقبيل ثدييها، ولا شيء آخر، قلت موافق، خرجت الفتاة عارية تماماً، وشديدة الجمال، احتضنتها وقبلتها، وقلت إنني ذاهب للعمل، وسأحضر معي نقوداً كثيرة، وتحسست ظهرها وجمال مؤخرتها، وهي تضحك مبتسمة، وخرجت.

حسان على الباب كالمسمار، قال إنه لن يذهب قبل أن يمسك ثدييها، ويضع يده على مؤخرتها كما فعلت.

قلت إنهم سيستدعون البوليس، انتزعته من مكانه بالقوة ونزلنا، وصار يغيب وينزل بمفرده كثيراً.

في بدايات العمل بالمصنع، توقعت أن يسب صاحب العمل العمال، لكن ما يحدث العكس، في نوبة الصباح ثلاثة عمال يونانيين، يتشاجرون مع أصحاب المصنع ويلعنون، وأصحاب المصنع صامتون إلى أن تنتهي المشكلة.

المظاهرات العمالية تخرج حاشدة، تطالب بزيادة المرتبات، تعلن الحكومة الموافقة على بعض مطالب العمال، يستدعيني ميتسو؛ ليقول بدون غضب أو فرح، الحكومة رفعت الرواتب بنسبة محددة، وعلى هذا

الأساس؛ فإن مرتبي، ويستخرج الآلة الحاسبة، ويحسب المرتب أمامي بعد الزيادة، ويصافحي ويشكرني.

ميتسو الشريك الثاني في المصنع كان مثقفاً، وكنت أعشقه، بملامحه القمحية الجميلة، اشتراكياً كان، وأكثر الثلاثة معرفة بتقنيات ماكينات البلاستيك.

مهدب إلى أقصى درجة، وينصحي بأن أشرب الحليب، وأتغذى جيداً.

اقتحمي أندرياس السمين شريكهم الثالث، وطلب بدلاً من أن أقف على الماكينة صامتاً، أن أصف أجولة الإنتاج وأساعدته، وأنقذني ميتسو متدخلاً بشكل حاسم قائلاً: «اتركه يعمل»، وحمل معه الأجولة.

أندرياس كان هارباً من جنوب إفريقيا بأمواله خوفاً على حياته، قرصان يميني ومسيحي متطرف، يرسم الصليب بمناسبة وبدون مناسبة، لكنه يحترم ميتسو لأقصى درجة، ويخاف من نيكو.

تعوّدت أن أجري في الشارع؛ لأصل للمصنع في الموعد، ولا أتأخر دقيقة، خصوصاً بعد أن أصبحت في وردية الليل، وكنت أصل في السابعة ليلاً، وأغلبهم سيغادرون لبيوتهم، باستثناء واحد من المفترض أن يمر لمدة ساعة ليلاً، ويصافحوني جميعاً مع التمنيات، وأغادر في السابعة صباحاً.

أمام تلك الماكينة العملاقة لا شيء تفعله حتى الصباح، أكياس البلاستيك الخام، تلقمها في الماكينة، وتخرج من القالب، أشكالاً عديدة، بعضها لعب أطفال وقطع غيار سيارات وأمشاط فاخرة.

معي قلم من النحاس الأصفر، يعالج الماكينة؛ إذا تصادف وتعطلت؛ لانسداد شوائب البلاستيك، باستثناء ذلك كنت قد عودتها أن تعمل يدوياً مرة واثنين، وفي الثالثة تنتقل؛ لتعمل أوتوماتيكياً؛ لتصل لأقصى سرعاتها في الإنتاج، ويخرج المنتج أمامي، فأضعه في الجوال بعد قص الزائد، وأضعه في جوال آخر، وعندما ينتهي الجوال أجزه لجوار الحائط،

وقبل أن أسحبه أضع جوالاً جديداً تحت الماكينة.

في الصباح أبدو فخوراً، بكل هذا الكم من الأجولة المعبأة بالإنتاج، وفي السابعة، يتدفق الجميع على المصنع، لأودعهم سعيداً.

وسط العمل أستخرج طعام العشاء، وأضع العلب المعبأة بالخضراوات واللحوم على سخان الماكينة، وبعد نصف ساعة تكون قد وصلت لمرحلة الغليان، وأتناول الطعام، أحياناً كان ميتسو يحضر، ويصر على أن أحصل على نصف ساعة لتناول الأكل، ويجلس مكاني سعيداً، وأنا أقول لا شيء سيتعطل.

في ورديته كان إذا استمر ساهراً حتى الصباح، يصر على توصيلي حتى محطة مترو الأنفاق؛ لينقذني من البرد والمطر.

مترو الأنفاق القديم المصنوع من الخشب، يندفع وسط العاصمة، وفي ساعات الذروة يتوافد العمال بالآلاف على عرباته، وفي الصباح الباكر لا تسمع سوى صوت بائعة الورد أو بائعة الكعك: «فريسكووو»، أي طازج وأصوات الأقدام اللاهثة للوصول لأماكن العمل.

ممنوع التدخين في المترو، ركب معي جابر، وكنا عائدين في إحدى الأمسيات، وأشعل سيجارة، اقترب شخص وأمسكها، وألقاها من الشباك.

العربات في آخر المساء شبه فارغة، صعد شاب وفتاة، وبدأ يعزف ويغني، أغنية تقول كلماتها إنه يحب تلك الفتاة، ولا يمتلك غير قلبه، ولا هي، لكنهما سيغنيان ويحبان بعضهما بعضاً، كانت البنت صغيرة، وتمر بين المقاعد على استحياء وهي تحمل طبقاً، ولا تمد يدها إلا بصعوبة، استخرجت كل الدراخما المعدنية الموجودة في جيبتي ووضعتها في الطبق.

تبادل القبلات في المترو، أحد عناصر الحياة، في مدينة أهلها فقراء، يعيشون الحياة، ولكل وقت في المترو مذاق، من السادسة صباحاً، وحتى الثامنة زحام وعمال، ومن التاسعة حتى الثانية عشرة جدات وأمهات

وأطفال، ومن الخامسة وحتى الثانية عشرة ليلاً عشاق وعائدون من السهر.
لم يكن هناك محصل للتذاكر، ونخرج من بوابات المترو، بلا
مراجعة، فقط بين الحين والآخر يصعد مراقب، يسأل عن التذاكر.

في الأتوبيس كان الأمر مختلفاً، لا يوجد غير السائق، وفي الخلف
ماكينة، تمنحها عشرة دراخمت، فتمنحك التذكرة، أحياناً ينسى
أحد، ويصعد وينسى قطع التذكرة، لن يحدث شيء، سوى أن عيون
الركاب ستحاصره؛ ليشعر بالخجل.

محمد صلاح كان قد قرر أن يغادر ويعود لمصر، وفي نهاية المساء
ركبنا الأتوبيس، وكان خالياً، وقعد مع اثنين من المغادرين في المقاعد
الأخيرة، وبدأ الثلاثة يغنون: «إحنا المصريين.. وعاوزين عباس... فين أمك
يا عباس؟»، كانوا يسخرون من خوفهم الدائم طوال الثلاثة أشهر الماضية
من القبض عليهم وترحيلهم.

عباس مصطلح البوليس السياحي، الذي يقوم بترحيل غير الحاصلين
على الإقامة، وكنا نشعر بالرعب عند رؤية سيارات البوليس السياحي
الرمادية.

ارتفعت أصوات الجوقة بالأتوبيس الخالي المندفع بنا في وسط أثينا
للوصول للأسواق لشراء مستلزمات للمسافرين.

في الميكروفون تحدث السائق بالعربية قائلاً: «من فضلك عيب
كده».

ونزلنا من الخجل في المحطة التالية.

في أول أيامنا بكاليفنيا اعتاد محمد صلاح أن ينزلق من شارعنا؛
ليقف على الناصية؛ ليشترى علبة سجائر، من الكشك تطل عينان،

ويمد صلاح يده بالدراخمت، ومع الوقت اعتاد أن يردد: «يا بلد الشراميط والرجال نسوان»، وقبل أن يستكمل شريط الشتائم، يمد صاحب الكشك يده بعلبه السجائر قائلاً: «أفخارستو بارا بولي»؛ أي شكراً شكراً جداً، وينطلق صلاح لمصنع القمامة.

يوم الأحد كنا عزمنا الذهاب إلى شواطئ «فولا»، وخرجنا على ناصية الشارع، وبدأنا نسأل عن الأتوبيس الأخضر، الذي يجوب الضواحي. استوقفنا عدة أشخاص؛ لنسأل عن فولا والأتوبيس «البراسنو الأخضر». قفز رأس صاحب الكشك من الشباك قائلاً بالعامية المصرية: «يا حبيبي إنت محتار ليه، إمشي يمين ثالث ناصية، تلاقي محطة البراسنو». في آخر إحدى الأمسيات، كنت عائداً بالأتوبيس الزجاجي، والمقاعد خالية، عندما قامت عجوز؛ لتجلس بجواري، وأفسحت لها مرحباً.

نظرت نحوي باسمة وقالت بالعربية: «مصري؟».

قلت مستغرباً: «نعم».

قالت وهي على وشك البكاء: «أصل أنا مصرية».

ترتدي فستاناً رقيقاً، أبيض وعليه رسوم صغيرة من الورد، ومدت يدها واستخرجت من حقيبتها محفظة بداخلها صورتها عندما كانت صغيرة في مصر وقلت ضاحكاً: «وهل ما زلت تتذكرينها؟».

قالت: «أنا مصرية يونانية، من الإسماعيلية، رجعت اليونان لكن أنا مصرية، الناس هنا مش بيحبوني، أنا كنت مبسوطة، الناس هناك طيبين».

قلت لها: «ولماذا لا ترجعين؟»

قالت: «تأخرت.. وأخاف ألا يتذكرني أحد هناك.. أكيد جيرانني ماتوا».

قلت: على الأقل تزورينها سياحة، قالت غاضبة: «أنا سائحة؟ لا.. أنا مصرية.. حد يبقى سياحة في بلده؟ لا.. أنا نفسي أقعد مع الناس في الشمس ونتكلم زي زمان وناكل بسبوسة.. بسبوسة بالسمن البلدي.. وشمام الإسماعيلية.. وما نجة الإسماعيلية».

أشرق وجهها باستعادة الماضي فقالت: «إنت عارف؟ حتى المعفن اللي بيوقف في الشارع؟ أنا باحبه ورائحته جميلة».

وظلت ربع ساعة تصف ذلك المعفن، حتى عرفته، بائع عربية الفشة والطحال والسمين.

وصلنا فولاً بالأتوبيس البراسنو وأنا وصلاح ومعنا الشيخ عيسى.

الشيخ صاحب كرامات، وعندما انتقلنا من كاليثيا عند خالتي تولا تمهيداً لرحيل صلاح بعد أيام، حضر ليسكن معنا، وحرص كطالب أزهرى على تحديد القبلة، ورسم محراباً على الحائط باتجاهها، وكان لا يقعد على المرحاض، بل يرفع الغطاء البلاستيك، ويجلس عليه بقدميه، وكأنه مرحاض بلدي؛ لأننا أنجاس.

تجليات عيسى بعضها تحقق، عندما أشار علينا بالبحث عن عمل في إحدى المناطق الصناعية، ووجدنا نحن الثلاثة أعمالاً، ورجعنا نلهج: «بركاتك يا شيخ عيسى».

ومن أجل رد الجميل دعوانه لزيارة شارع سنجرولمشاهدة الشواذ، والاستمتاع بمعاكسات المخنثين فرفض في صرامة، ودعوانه للسينما فقال إنها تعرض مشاهد جنسية، قلنا إنها غير أفلام السكس فقال: ولو.. إنها تعرض بعض المشاهد العارية، وقد كان صادقاً.

وعندما عرضنا أن يذهب معنا إلى بلاج "فولا" فوجئنا بموافقته، وعزها بقوله: «علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل».

كبائن البلاج في "فولا" مختلطة، راح صلاح؛ ليخلع ملابسه، سمع أنيناً مكتوماً، تأخر في استبدال المايوه، زاد الصوت وانتظم، صعد لأعلى على الدكة المخصصة للجلوس داخل الكابينة، وكان السقف مفتوحاً مع الكبائن المجاورة، لمحها في الكابينة المجاورة خارجة من البحر تلحس الجيلاتى ممددة على الدكة، فاتحة وركيها، وهناك رأس بين فخذيها، رآته فابتسمت ولم ترتبك، وواصلت غنجها، ووضعت إصبعها على فمها محذرة، ونزل صلاح.

بمجرد وصولنا على الرمل الساحر المفروش بالورود والنجيل الأخضر،
مددنا أنا وصلاح مفرشاً على الخضرة، وسط الفاتنات النائمت، وبعضهن
يلعبن بالكرة.

كان الشيخ عيسى فاتناً بالمايوه الأحمر، وانزلق مشتاقاً للمياه،
والنساء من حولنا وفي الماء، يخلعن بمجرد وصولهن، نصف المايوه الأعلى؛
ليتعرضن للشمس، وبعضهن يضعن على أثدائهن المكشوفة الدهانات،
أو ينمن على بطونهن مستمتعَات بنسمات الهواء وصوت البحر وعذوبة
أشعة الشمس.

التأمل لم يدم طويلاً، فقد تابعنا أنا وصلاح صرخات قادمة من البحر،
وفي البداية لم ننتبه، لكنها زادت.

حدق صلاح بعيداً، وفي النهاية هتف: «يانهار أسود.. عيسى».

كان الشيخ يخور كالثور على كل النساء بلا استثناء، وهن
يقفزن من أمامه، وبعضهن هربن إلى المياه العميقة، لكنه قرر أن يطاردهن
بالعوم الكلابي.

سبحت إلى عيسى في وسط الماء، وحاولت إيقافه، لكنه كان يردد
هائجاً: «والله لازم نركب النخل».

بعد تدخل صلاح أرجعناه للبيت، ولم يعد ينصحنا بالصلاة.

- «إصحي يا وسخ».

لكزني محمد صلاح، نائماً كنت تحت ثلاث بطانيات، محتمياً من البرد.

- «اطلع من تحت الغطاء».

- «طيب بس فيه إيه يا صلاح؟».

- «مين عمك وتاج راسك؟».

- «إنت طبعاً».

لطشني "على وجهي، وهو يكرر: «وايه رأيك في القلم ده؟؟».

- قلت: «جمييل».

صلاح، هوايته إقلاق منامي، أغادر البيت في السابعة صباحاً لمصنع البلاستيك، بعد أن انتقلت وردية الصباح لحاجة العمل، وهو يخرج في الخامسة قبلي بساعتين لمصنع الورق، وقبل أن يغادر يستغل خروجه المبكر، في صفعي والاستمتاع بالاعتراف بأنه أبو الرجال.

كان ينتقم؛ لأنه من يومين حضر ليلاً، فقلت: «دعني؛ لأنني تعبان دي بلد بنت وسخة».

«سمير وعويضة وعادل قبضوا عليهم ورحلوهم وأخذوا كل ما معهم».

الكلام جاء على هواه، وهو المغادر بعد أسابيع، وظل يردد: «يا أولاد الكلب»

وتركني ونمت سعيداً.

سمير وعويضة وعادل في اليونان من عامين ولهم الفضل في توفير السكن وعمل معظم الدفعة، وكان المطرفي الخارج سريعاً، وبعض القطرات تلتوي، ولا تسقط على الأرض، وتصعد للهواء نثفاً ثلجية كالفيشار.

ارتدى صلاح المعطف الثقيل وفوقه بالطو ومعطف للمطر، ورفع شمسية، وخرج محذراً الدفعة من مدهامات البوليس للبيوت، وقف تحت بيت محمد عطية ونادي، وبمجرد أن أطل وعرف الحكاية خرج مع أربعة، وذهبوا البيت بكر؛ ودقوا الجرس؛ ولما وصف صلاح الكارثة نزل مهرولاً، بعد خمسة بيوت كان صلاح يمشي بين عشرين ليحذر شوقي، وكان مثلنا يسكن بالدور الأرضي مع ثلاثة آخرين، أزاح الباب عند الحديقة، وكان النور مضاءً، دقوا الجرس ودخلوا عند شوقي، وكان ضيوفه سмир وعويضة وعادل يحتسون الشاي، وشاركوا جميعاً بزفة محمد صلاح؛ لذلك كان صلاح ينتقم مما فعلت بضربي كل صباح.

جناح فريقينا في الهاندبول اللزج، كان يستأذني في المباريات الرسمية في إضاعة أول كرة، ويقتحم دائرة الستة أمتار من نقطة الصفر، وعندما يسد الحارس المرمى بجسده، يطير صلاح؛ ليصبح على بعد نصف متر من المرمى، ويطلق مدفعاً من يده على وجه الحارس؛ ليصاب بالشلل من عنف الضربة، وبعدها ينطلق صلاح من الجناح، بينما الحارس المرتعش يوسع للكرة طريقاً للمرمى خوفاً على وجهه.

قال ضاحكاً: «أنا يا بن الكلب تعمل معايا كده؟».

قلت: «عملت إيه؟ ده انت أخويا ومثلي الأعلى في الحياة».

أمسك بتلابيبي صائحاً: «وكمان بتستعبط؟».

قلت ضاحكاً: «لاحظ إن دي فيها دقيقتين طرد، وأنا صانع اللعب وكابتن الفريق يا روح أمك».

تركني وجلس يقهقه على السرير قائلاً: «بس المقلب حلويا بن الكلب».

صلاح ظل شهراً ينتقم بإيقاظي في أحلى ساعات النوم، يصحو في الرابعة؛ ليفطر ويدخل الحمام، ويملاً العلب بطعام الغذاء، ويرتدي المعطف الثقيل، ويخرج في الظلام الدامس، طوال فترة التجهيز يروح ويجيء كالأتوبيس؛ ليدهسني، مستمتعاً بـ «تلطيشي»، وإقلاق منامي، والحصول على اعترافات بأنه سيدي، وأن أفضل واحد من عائلتنا يتمنى أن يعمل لديه خداماً.

صلاح لينام يذهب للفرش مبكراً، قبلنا بساعتين، ليصحو مبكراً، وقبل أن ينام تعشى، وضبط المنبه على الساعة الرابعة.

كنا في الصالة، نلعب الكوتشينة، بعد نصف ساعة، من نوم صلاح، أخذت المنبه وضبطته، بحيث يدق الرابعة بعد ربع ساعة، وأطفأنا كل الأنوار، ودخلنا تحت البطاطين.

رن الجرس، وانتفضت عضلات الثور النائم من تحت البطاطين الدافئة وصرخ، وخرج صوت صلاح قائلاً: «يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم».

وعرج على سريري وضربني قائلاً: «إصحى يا زغلول يا بن الوسخت»، ودخل المطبخ، ووضع أمامه طبقاً عامراً من الفول، وآخر من البيض مع البصل، والتهم المائدة.

بعدها دخل الحمام وتبرز، وخرج صائحاً: «جاي اليونان يا وسخ تعمل إيه؟؟ تبصص عالبنات؟».

«يا سافل يا قليل الأدب».

وضربني مرة أخرى سائلاً: «إنت متربي إنت؟».

قلت محتجاً من تحت البطاطين: «صلاااااا».

فكرر محتداً: «إنت متربي؟»، قلت: «طبعاً لا».

قال: «ماشي طبعاً دلوقت مؤدب».

وخرج ليحتسي الشاي وبعده القهوة.

خلا مع نفسه دقائق، وارتدى الباطو و فوقه معطف المطر، وصفق

الباب.

كانت الساعة التاسعة مساءً تقريباً، عندما خرج، يوماً يخرج قرب

الفجر، ولا أحد في الشارع سواه، لكن الشوارع على غير عاداتها كانت

مزدحمة بالناس،

وعلى ناصية الشارع شاهد الواقفين على باب المقهى ومن يلعبون

الدومينو.

التفت خلفه؛ ليجدنا واقفين في انتظاره، وضحكنا للصباح على

تبرزه، والابتلاع "الطفس" للقول والبيض؛ برغم أنه ملاً بطنه من عشر

دقائق.

ذات مساء عاد صلاح يعلوه التراب، وارتدى على المقعد، قلت

ضحكاً: «أبو صلاح الجامد فين أمجادك، فين تاريخك؟»، تلفت حوله في

حذر، وهز رأسه الثقيل خوفاً من مقلب جديد، ولما اطمأن قال: «اسمع أناها

سافر».

كان يعمل في مصنع للورق، لكنه في الحقيقة مصنع قمامة،

يُعيد تدوير الورق، صلاح لم يكن يزعجه أن يرفع تلك الأكياس

العملاقة على ظهره، كان كالدب الذي تقرصه البراغيش، يكره

التراب المتساقط من الورق، ويعجز عن دفعه.

غادرنا صلاح بعد ثلاثة شهور، وبقي الشيخ عيسى وحسان وعاطف وجابر، والأخير كان نحيلاً طويلاً كعود القصب الهارب من الغيط، وعندما هاجمناه لتأديبه، قيدت يديه، وصخت فيه: «بتخبي إيديك خايف ليه؟».

فأخرج يده الأخرى من تحت البطاطين صائحاً: «هيء هيء».

كان واضحاً أنني أمسكت شيئاً آخر.

بعدها صار جابر الخجول المؤدب، أيقونتنا، نتجسسه لنصاب بالعدوى، وبتسلل لاختراق الحمام وهو عار فيصرخ، ونراهن على بيع قدرات جابر بملايين الدراخمات.

في شارع "سنجرو"، الشواذ يصطفون على الجانبين، نهود بارزة، وأفخاذ وبطون عارية، والبعض ينام داخل سيارات منيرة لعرض مفاتنه، في الشارع عبر قس بمسوحة الكنسية السوداء، ولما لفت نظره جابر، صدمه من الأمام صدمة أسكرت القس، وبعدها لم يفارقه، وتصبب عود القصب عرقاً، وهو يبحث عنا، واختبأنا؛ لنتفرج على جابر، وهو يقطع المسافة بطول الشارع، وهو يهرب من ملاحقة القس ويقفز من رصيف إلى رصيف.

عند أجمل الفاتنات الرجال توقفنا بعد إنقاذ جابر، وكان المخنث واقفاً على الحائط فوق الرصيف يمضغ لبانة، بميكرو جيب لا يزيد على ٢٠ سنتيمتراً، تحته لباس أسود، ينكشف مع كل حركة، وصدري يقفز بجنون، بدون حمالات ثدي، على بطن مختمر كالعجين، كان أجمل من كل بنات الدنيا، ويزيد عليهن في الإغراء.

سألناه: «ماذا عندك؟».

فتلفت حوله وكأنه يذيع سرا: «ليس عندي شيء من الأمام».

سألت: «ما كل هذه الحلاوة؟» ومددت يدي لأتفحص البضاعة فتراجع في خجل.

قلت: «وماذا سنفعل معك، وليس لديك شيء من الأمام.» قال: «ممكن من الخلف».

وأكمل: «وممكن باللسان في السيارة».

«اللسان بـ٢٠٠ دراخمة، ومن الخلف بـ٣٠٠ دراخمة».

قلت: الأسعار عالية، ونحن طلبة نريد تخفيضاً.

قال في خجل: «لا... أنا جميلة».

قال عاطف: موافقين، هذا الولد يريد من الخلف، وأشار لجابر،

نظر لجابر، وتراجع على الرصيف خائفاً: «لاااااا»، «أنت؟»، سائلاً جابر.

قلت: «نعم وما المانع؟».

قال: «لااااا... هذا ألف دراخمة».

حاولنا إقناعه بأن أصبع بطن جابر لا يزيد على عقلة الإصبع، وهو

يردد في حسم: ألف دراخمة».

وفي النهاية، وبعد مجادلات قال: «إن كان كلامكم صحيحاً أراه».

وانصرفنا نهتف للمعلم جابر.

تأخر مصطفى في المساء، وشعرنا بالقلق، وخالتي تولا قررت ارتداء فستانها الوحيد والخروج للسؤال عنه، وعندما عاد مترباً يحمل جوالاً من الفاكهة على ظهره أخذته بالأحضان.

سولا اعتادت أن تقعد معنا في الحديقة، يوم الأحد وضعنا كاسيت بعد الخامسة ووقفنا نرقص معها، على أنغام «فوق غصنك ياليمونة» لفريد الأطرش، وبدأت تتعود على هز مؤخرتها كالراقصات المصريات، اقتحم عملاق طويل، باب الحديقة، ووقف صاخباً، ليرقص على طريقة زوربا في مواجهة سولا، وضحكت خالتي تولا وشفقت.

يورغو جارنا المسن الصياد، بعد وصلة الرقص، وفنجان من الشاي، صار صديقنا.

عرفنا من تولا أن يورغو مريض، يوم الأحد التالي حملنا صحبة ورد ومعنا تولا، لنزوره في بيته المجاور، كان زعيماً لقبيلة، ووجدنا أنفسنا بين بناته، وحفيداته من المراهقات، أكثر من خمس عشرة فتاة وامرأة معظمهن جميلات، وقال أحدها إن يورغو يمارض؛ لكي يُحيط نفسه بكل هؤلاء الفاتنات، وضحك يورغو.

قال لنا إن لديه مركباً لصيد السمك، وحكى جانباً من مغامراته مع البحر، وسط لمعان عيون حفيداته المراهقات واعتراض بناته على حكاياته، التي من الواضح أنهم سمعها كثيراً.

سألت إحدى بناته: «وأنتم ماذا تعملون في مصر؟»، «فقلنا: طلبتة جامعة».

تلفتن حولهن في إعجاب، وقالت البنت الكبرى: «مسلمانو»، وأجبنا جميعاً: نعم.

قالت إحداهن: «مسلمانو... رمضان» قلنا: نعم.

قالت: «لا تأكلون؟» قلنا: نعم، فقالت: «ولا...»، ونطقت كلمة، ونظرنا لبعضنا؛ لتأكد مما تقول.

أعدت الكلمة، والتفتنا نستنجد بيورغو، وكان يتتبع ما يقال من علي سريره ضاحكاً، فأخرج يده من تحت الغطاء، مشيراً بعلامة النكاح قائلاً: «ولا....».

فقلنا في نفس واحد: «لا».

وسقطوا جميعاً من الضحك.

قضينا ربع ساعة نحاول إفهام يورغو وحفيداته وبناته، بأننا في رمضان نتوقف عن الطعام والجنس، إلى قبل الغروب، لكننا في الليل نفعل الأفاعيل.

وسأل يورغو عن الختان، وقال إنه شاهد أحد الأفارقة يتبول، كان بدون غلف، كالخيار تماماً.

مات يورغو، وافتقدنا جاراً طيباً، وذهبنا للعزاء، واحتسبنا كونيالك، وتناولنا هريسة فاخرة، لم يكن هناك عويل ولا صراخ.

بيوت تزييفيز الحميمة، فقيرة في طرقاتها، لكن تسمع السلام بين الجيران، وخالتي تولا تغرد من شباكها؛ لإلقاء تحية الصباح على جاراتها، وعندما علا صوتهن من الاشتباك، لمرة وحيدة، خرجت خالتي تولا يومها بالفستان الأزرق الوحيد والبروش تقليد الألباس، وأطلقنا الصافرات خلفها؛ لنعاكسها، قالت إنها ذاهبة لانتخاب بابا ندريو، وكانت ميادين أمونيا وسي دغما تغلي بالواقفين في مناقشات لانهائية، شعب بأكمله يقف في الشوارع والميادين، من كل الاتجاهات السياسية للتجادل.

أعلنت النتائج في المساء، وانحسر الزحام عن الميادين، وعادت خالتي تولا وصديقاتها يغردن كالعصافير.

عند أورانيا يغرد الياسمين على حبال الحب والجمال.

عرفتها هناك على جبل بلاكا، الصاعد إلى الأكروبول، حيث كتب اليونانيون القدامى: «أعرف نفسك».

وصلت للمطعم؛ لأبحث عن عمل إضافي، فلاخوس، مطعم الفلاحين، أمام بيتها.

في المساء صرت مكلفاً بغسيل الأطباق، وفقاً لتوجيهات صموئيل، الجارسون المصري.

انتهيت من عملي سريعاً، ووقفت على باب المطعم، ورأيتها لأول مرة تتحدث مع إيلين.

سبعة عشر عاماً من الجمال، ملاك من الياسمين وعيونها نصف جمال الدنيا، والباقي أنفها اليوناني والضم الدقيق، وشعرها الأسود الفاحم المسدل، على حمرة من الخجل.

اقتربت إيلين قائلة: «إزيك».

قلت: «بتتكلمي عربي؟» قالت: «شوية شوية».

كانت أورانيا قد انسحبت؛ لتقف على عتبة البيت.

قالت إيلين: «حلوة... تحب تكلمها؟؟».

قلت مضطرباً في أول أيامي: «لا.. لا».

أعطيت لإيلين قطعة شيكولاتة صغيرة، وصرنا أصدقاء، وأحضر لها كل يوم وردة.

إيلين هولندية تتحدث العربية والدويتش (الألمانية) والداتش (الهولندية) والإنجليزية والفرنسية والقليل من العبرية.

قالت إنها تعلمت القليل من لغة بني إسرائيل عند زيارتها لتل أبيب،
وأن شقيقتها متزوجة هناك.

إيلين ابنة رجل أعمال هولندي ينتج السفن العملاقة، قررت أن تجوب
أوروبا وإفريقيا وآسيا، لكنها تعثرت وتزوجت من مصري في اليونان.

من اليوم الأول اصطدمت بجلافة الجارسون صموئيل، كان حاداً في
التعامل معنا، أنا وعاطف، ولما رددت عليه، قرر أن يتركني في المطبخ
مع الأطباق والصابون؛ ليعذبني كوستا، وأخذ عاطف جارسوناً في الدور
الأعلى.

بعد ثلاثة أيام كنت واقفاً مع إيلين نضحك أمام الباب، بعد أن انتهيت
من تجهيز المطبخ، فقال في غيظ: «هل تعجبك.. وتعاكسها؟!».

وقبل أن أرد قال: «إنها زوجتي»، ورمقته إيلين في غضب.

فلاخوس، مطعم الفلاحين ثلاثة أدوار، الأول تحت الأرض وبداخله
المطبخ، والزائر يصعد دورين على السلم، بصعوبة بالغة؛ لأنه سيدخل في
متهات من الأبواب الوهمية والدهاليز المسدودة والخدع إلى أن يكتشف
الطريق إلى السطح؛ ليجد نفسه أمام بانوراما أثينا من ارتفاع ألف متر.

الدور الثاني كان مزدحماً دائماً بصرخات السائحين، الذين يسقطون
من الضحك على المقالب، والعشاق في المتهات يتبادلون العناق، ولا يريدون
الوصول أبداً، ويتبادلون الهمسات قبل الصعود.

علي قمة المطعم ٢٠ طاولة حمراء، وأمامها باند للموسيقيين، وفي
الخلفية صنادير وقنان من الزجاج، يفتح الصنبور على برميل معتق من
الريتسينا، النبيذ الأبيض اليوناني، ونبدأ في الخامسة مساءً استقبال
الزبائن حتى الثانية فجراً.

يمتلك المطعم ثلاثة أشقاء، كلهم لم يتزوجوا، مانولي يدير البانوراما في الطابق الأعلى والحسابات، لورد بكل المقاييس، شياكتة وجمال ونظافة، لا يريد أن يكسب ولا يهتم، عمره ٧٠ عاماً، ولا يطلب من الدنيا سوى أن يستمتع مع الأصدقاء بالسهر والحياة، وكان معظمهم يقضي اليوم عندنا مجاناً.

شقيقتهم الوحيدة عانس، كانت تحضر أحياناً وترحل.

كوستا رفيق المطبخ، كان على عكس مانولي يصغره بعامين، لكنه بخيل ويعمل بيديه طباًخاً؛ ليوفر.

في أول المساء، يقف كوستا أمام صورة أحد القديسين، وكان يضع أمامها شمعة، والشمعة مغموسة في الزيت؛ حتى لا تحترق سريعاً توفيراً للنفقات.

يقول كوستا للقديس: «أنت تعرف جيداً أننا لا نجد ما نأكله... وليس عدلاً ما يحدث.. نحن نعمل كل يوم، كل يوم.. ونصلي، وأنت لا تفعل شيئاً... حرام أن تتركنا».

وقبل أن يزداد انفعاله غاضباً، يشعل عود ثقاب، ويشعل الشمعة؛ لتسدل نوراً على وجه القديس.

«يني».. صاح كوستا.

كان قد قرر تغيير اسمي العربي؛ لأنه لا يعرف كيف ينطقه.

«أخرج إلى الشارع نريد زبائن هذا حرام».

كان يحترق في المطبخ وسط اللحوم والبطاطس المقلية وأذناه على السلم الخشب؛ ليسمع أقدام الزبائن، وقبل أن يشتبك مع النيران، يرش قليلاً من السكر على الباب؛ ليمنع الحسد.

صعد للمطعم جروب من التشيك، فتيان وفتيات، وانبعثت ضحكاتهم الصاخبة وصرخاتهم، وهم بالشورتات القصيرة والمايوهات، يبحثون عن طريقة للوصول إلى أعلى المطعم.

صاح من تحت الأرض: «يني... ييني».

قلت: «نعم يا سيد كوستا جروب جيد».

قال: «شكراً يا ييني.. أنا أحبك يا بني تعال.. تعال.. لنعمل بسرعة لتجهيز السلطة اليونانية الخورياتيكي».

«كم عدددهم؟»

قلت: «تقريباً ٤٠».

قال مفتخراً وهو يفرك يديه: «ووووو»، ورسم علامة التثليث والصليب،

وذهب مسرعاً نحو الشمعة، ونفخ فيها؛ ليسدل الظلام على القديس.

أغلب الأيام كان كوستا يعمل بلا مقابل؛ لأن الأقدام التي يسمعها، ويهرول لخدمتها، من أصحاب مانولي، يأكلون مجاناً.

كان يخاف مانولي، ويخجل منه، ولا يجرؤ على مناقشته طويلاً.

علي أن «أنا كيتي» شقيقتها عرفت بما يفعل مانولي، كان بعض الحاضرين من أصحابها، وحضرت مرتين؛ لتفضحهم، وسيطر مانولي على الموقف، وانفعل كوستا.

بيت صموئيل وإيلين، غرفتان وصالته، لكنه جنة، يطل شباكها على أثينا من ارتفاع شاهق، وتفتح أبوابها على العشرات من السائحين النائمين في الطرقات احتفالاً بوصولهم لأرض آلهة الأولمب، ويحملون آلات موسيقية ويرقصون في الشوارع حتى الصباح.

في العصر والصبح، تخفت حركة الأقدام في جبل بلاكا، وكنت يوم الأحد لا أعمل بالمصنع، لكنه يوم عمل مهم بالمطعم، وأصعد الجبل مبكراً، ومررت من على باب صموئيل، وعرجت على دوران الشارع.

السيد لوخاندرو جالساً من الحر، على باب البيت، بالشورت القصير، فارد أ قدمه على الآخر؛ لتدخل تحت تنورة سونيا، وأصابع رجله تداعب ما بين ساقها، وقد رفعت فخذها؛ وضمت ركبتيها على الكرسي.

لوخاندرو عضو البرلمان اليوناني في دورات سابقة، لا يقل عن ثمانين عاماً، وسونيا ٢١ عاماً، نسمع صرخات أمها، تحضر؛ لتفصح لوخاندرو وتدعو عليه، بعد أن أضاع ابنتها.

سونيا جميلة وعاريتة دائماً، وحسنت المعركة بانحيازها للوخاندرو.

يرسلها أحياناً لمطعمنا؛ لتملأ قنينة نبيذ أبيض (ريتسينا)، قبو الخمور ممتد تحت الأرض ومزدحم بالبراميل لتعتيق النبيذ.

دخل عاطف ليملأ لها الزجاجات، وأزاح بنطلونها الجينز فلم تعترض، ومالت على البرميل، وظل يطعننها من الخلف وتتأوه، لولا نباح كوستا في أول القبو منادياً فخرج عاطف مسرعاً، كوستا تأملهما طويلاً، أخبره عاطف أن السيد إليخاندرو طلب النبيذ مجاناً بناءً على توجيهات مستر مانولي فصاح كوستا: "مانولي... مانولي لن نجد ما نأكله".

ونصح عاطف أن يخبرها في المرات القادمة بأننا فقراء.

نزلنا من الجبل، أنا وجوليانا نسقط على بعضنا من الضحك، كانت جوليانا مثلي، قد توقفت؛ لتفحصه جيداً.

وفي النزول قالت: «مستحيل.. نهدها.. واووو.. وجماله.. وشفته... ونعومة ساقيه».

وأردفت ضاحكة: «لو عندي نصف إمكانيات هذا الوغد؛ لكان كارامانليس رئيس جمهوريتنا ركع تحت أقدامي».

جوليانا من حقها أجازة والفرقة الموسيقية.

أخبرني مانولي بذلك، وكنت مع صموئيل، نعمل على خدمة الفرقة وأعضائها؛ لتشجيع الزبائن على الرقص، وبعد العشاء نشاركهم الرقص، ويضحك مانولي ويرفع الكؤوس في صحتنا، وتصل المتعة ذروتها عندما يضع صموئيل الصعيدي الكنبية بين أسنانه؛ ليرقص بها تاركاً ذراعيه بالهواء، ويصرخ زبائن المطعم من الانبهار.

نشترى أطباقاً للتكسير؛ ضيوفنا اليونانيين يحتفلون بجمال المرأة عندما ترقص، بتكسير الأطباق تحت قدميها، والكؤوس والأكواب، وحرصاً على تقليل الخسائر نشترى الأطباق المصنوعة خصيصاً لذلك، ويشترىها الزبون لاستكمال المتعة.

يوم غياب الفرقة الموسيقية، قلت لمانولي: «لن يحضر أحد وكوستا سيسلخنا».

قال: «لا تقلق لن تجد مكاناً في المطعم صديقي كواستيللو الموسيقار الشهير سيحضر، وهو نجم التليفزيون والسينما».

في المساء حضر وحيداً، في الثمانين من العمر، وحده مع آلة البوزوكي، الشبيهة بالعود، وازدحم المطعم حتى ضاق بعشاق فنه من الأجانب واليونانيين.

في العاشرة مساءً، توقيت استراحة الموسيقى لنصف ساعة، توجهت نحوه كما أفعل مع الفرقة الموسيقية؛ لأعرف طلباته من المأكولات والمشروبات، وكنت مسحوراً بأداء ذلك العازف المسن، الذي أشعل النار في المطعم بالرقصات الصاخبة، والأغنيات القديمة التي يتأوه عند سماعها الجالسون، ويقفزون من أماكنهم غير قادرين على القعود؛ لينفجروا في حلبة الرقص مع بقية الأجساد الصاخبة.

سألته: «سيدي ماذا تشرب؟».

قال وهو يتفرسني: «سطل خروب وواحد عرقسوس».

ووسط دهشتي قال: «مصري وصعيدي مش كده؟ أنا عرفت من مانولي».

وأضاف: «شوف.. أنا ما يهمنيش كل اللي سمعته دaaa.. أنا هاسمك الشغل اللي أنا باحبه... ولو عايز حاجة اطلبها».

«ذهب الليل طلع الفجر والعصفور صوصو صوصو.. شاف القطة قال لها بسبس قالت له نونو نووو.. ناو ناو».

وارتج المطعم بالرقص، على أغنيات محمد فوزي وفريد وعبد الوهاب.

وبكى وهو يغني: «يا مصطفى يا مصطفى أنا باحبك يا مصطفى، سبع سنين ف العطارين وأنا باحبك يا مصطفى».

قلت: أين عرفت كل ذلك؟ قال: «حبيبي أنا كنت رئيس فرقة محمد فوزي واسمي موجود في معظم أفلامه».

لم يأكل سوى لقمة، وشرب كأساً من الكونياك، ولملم البوزوكي، وأدخله في الجراب الجلدي بمعاونة مرافق، وعانق صديقه مانولي وخرج، وقبل أن يرحل استخرج ٥٠٠ دراهمة ودسها في يدي، وقال: «سلم لي على مصر، لأن متهيألي مش هاشوفها ثاني».

انتحردلك المخلوق.

قفز من الدور الثالث، معتقداً أننا ننتظره في الحديقة الخضراء.

وسقط على رأسه.

وبيكت سولا بحرقته.. واحتضنتها.

أحضرت علبة كارتون، ووضعت بداخلها تاكي، وحفرت حفرة ودفنته في الحديقة.

وفي اليوم التالي جلب جابر من المصنع المجاور قطعة رخام مستطيل، وكتبنا عليها: هنا يرقد الجميل تاكي، وغرشناها على حافة قبره.

ونزلت سولا مهرولة؛ لترى ما نفعل.

شوارع بلاكا، معظمها يعزف موسيقى زوربا الشهيرة، وإلى جوارها، ليالي الأنس في فيينا، وموسيقى الربيع، وروائع عبد الوهاب.

يوميماً أعود من المصنع في الرابعة، وأصعد للدور العلوي بالمطعم، واختصاراً للوقت أبدأ بتنظيف الطااولات والباند، وأصّف المقاعد، وأفرش الطااولات، وأستبدل بقناني النبيذ أخرى نظيفة، وأستريح على أحد المقاعد وأنام.

عين كوستا الماكر تراقبني، ويسأل نفسه لماذا أحضر قبل موعد العمل، وبدأ يشك في أنني أسرق الطعام.

جارتنا السيدة ليندا، الساكنة على الهضبة فوقنا على الجبل، زارت كوستا؛ لتطمئن على شقيقته، قالت إن هناك ولداً تراه كل يوم،

يصعد المطعم مبكراً، وينظف وينظف، حتى يلمع كل شيء، ويتعب ويستلقي نائماً.

صار كوستا يهمل عندما يراني: «أنا أحبك يا بني».

«واقف عندك تعمل إيه؟».

قالت إيلين.

فقلت: «زهق».

قالت: «أجيب لك شيكولاتة».

قلت: لا

قالت إيلين: أنا حامل وسأنزل مصر.

قلت: مصر؟

قالت: نعم.

قلت: صموئيل لم يخبرني.

قالت: لأنني سأسافر وحدي.

قضت أياماً تسألني عن الناس والشوارع والمدن، بنت صاحب مصنع السفن الهولندية تريد أن تعرف أهل زوجها قبل أن تضع طفلها الأول.

ظهر صموئيل. وقالت: صموئيل هل تحبني؟

كان مندفعاً لأعلى يحمل الأطباق، فصاح: «أنت ملوخية».

ناقشتني في معنى: «ملوخية»، ولم تقتنع.

وقالت إن صموئيل يقول أشياء غريبة هذه الأيام مثل: يا قمر.

فهل يقصد أنها كالبحر، وأنهم سيهبطون على وجهها؟

حاولت أن أشرح لها أن البدر في الصحراء مختلف، وأن المقصود أنها منيرة، قالت صموئيل يكذب أحياناً بلا سبب، هل تتذكر عندما سألتك عن ليلة الدخلة في صعيد مصر، وما يحدث للفتيات من فض غشاء البكارة بالأصابع، أنت قلت: نعم هذا يحدث، لكن صموئيل ظل يكذب، ويقول: هذا مستحيل، مع أنني قرأت ذلك في كتاب.

عادت إيلين من مصر بعد أسبوع، وهي تكاد تضربني، كنت قد شحنتها بقصص خرافية عن النيل والأهرام وليالي كليوباترا، وبمجرد أن شاهدتني احتضنتني بقوة. فقلت: مصر تمام؟

قالت: لا! أنت كذاب مثل صموئيل، ومصر كله حرامي.

قاهرة كل الناس حرامي حرامي.. شيل شنطة حرامي.. ضابط مطار حرامي.. تاكسي حرامي.. مطعم حرامي... وأمسكت رأسها وكأن عاصفة تمر.. تووووت... تووووت.. بييب... بييب... حرامية حرامية.

وقفت حائراً، لكنها تداركت: طهطا «بلد صموئيل في سوهاج» كويس.

ناس طيبين... فقراء... لكن.. أهلاً مدام... تفضل اشرب شاي... هواء نظيف.. وأم صموئيل وأخوته وأبوه ناس طيبين.. لكن أم صموئيل تعذب الإوز.

تحبس الإوزة بين أفخاذها؛ لتحشو فمها بالفول والذرة.

الإوزة تصرخ: لا...

فتملاً أم صموئيل فمها بالماء، وتمنح الإوزة قبلتها، وتفرغ الماء بجوفها، بينما الإوزة تحتج وتصرخ.

ولا تهدأ أم صموئيل إلا بعد أن تجس بيدها حوصلتها، وقد انتفخت، وتركها خامدة غير قادرة على الحركة.

بعد تعذيب الإوز توقفت إيلين، ومدت يدها وقالت: أم صموئيل فنان.

صمم من أجلي فستاناً، ودخلت وعادت ترتدي جلباباً عجيباً مليئاً على طريقة الفلاحات بالزهور العملاقة الفاقعة الألوان، والفتحة سفرة يحددها شريط على الصدر والأكمام مع بعض الكشكشة عند الذيل.

كانت منسجمة، وظلت تدور في مكانها وأنا وصموئيل مذهولان.

وشرحت سعادتها لأنها ستذهب بالفستان لحفل الإيظابيو الموسيقى، كانت حديقة الإيظابيو تنظم حفلاً موسيقياً أوركستراياً كل أسبوع، يحضره الزوار بالملابس الرسمية، وبدأنا نشعر بالخطر، لكنها أصرت وراحت.

في نهاية اليوم قالت إنها كان محط أنظار المدعوين، وأن الفضل لأم صموئيل؛ لأنها ألقت عليها نظرة واحدة، فصنعت هذا الفستان الجميل.

فصاح صموئيل: ملوخية.

وصاحت هي: أااااه هذا هو الشيء الوحيد الذي نسيت أن أسأل عنه في مصر، وبدأت تنظر نحوي في قلق، لعل عندي تفسيراً آخر.

أدخلتها متاهات وأفهمتها أن الملوخية أنواع: بالأرانب والفراخ واللحم والمواسير، وأن هناك الملوخية الخضراء والناشفة والشلولو.

جاء محفوظ، وهو لمن لا يعرفه، جدير بالاحترام، قصير سمين، قطع من عمره ٤٥ عاماً؛ ليطلب أن يعمل في مطعمنا؛ لأنه لا يجد ما يأكل، الطلبات عند كوستا في الدور الأول، والمطعم والزبائن في الدور الثالث، يصعد محفوظ بالطلبات مرة أو اثنتين، وبعدها، تراه نائماً على كرسي

في أحد الأركان، يوماً ما أصابه كابوس، وصحا وهو مازال يتحدث مع نفسه، وكان يعترض على الآلهة، وتوزيعها للرزق؛ محفوظ دفعة عادل إمام وكان يغششه في كلية الزراعة، وحاصل على ماجستير. ومع ذلك فإن الرب يعطي عادل إمام مع أنه غبي وشكله قبيح، ولا يعطي محفوظ، ومن بعدها صار يعمل معنا بلا استئذان، يختفي عدة أيام، ويعود؛ لينام على أحد الكراسي من التعب.

إيلين تتمشى يومياً للحمل، وذهبت معنا للبحر، وبطنها المنتفخ يطفو فوق الموج.

وفي أول يوم ولادتها ذهبت مع صمويل للمستشفى مع الورد، دخلنا حجرتها كانت عارية تماماً، إلا من رداء أخضر مفتوح من كل الجوانب، وكانت ترتب سريرها استعداداً لملاقاتنا.

تعارك صمويل مع مانولي للاختلاف على الأجر، كان يحمل إقامة، وتغيب عن المطعم، وصرت الجارسون الرئيسي بالمطعم، بعد أسبوع زارني وقال إنه سينتظرنى؛ لأن لدينا موعداً مهماً في الصباح، وقال إنه يعرف أن غداً الأحد إجازة المصنع.

رجعت للبيت من وردية مصنع البلاستيك أحمل كيساً، بداخله كراسي وطاولات وبوتاجاز وثلاجة وسرير ودولاب.

المطريفور ويتطاير بشدة.

طرقت الباب على تولا.

فتحت بجلبابها القطني الخفيف، وهي تضع شالاً قטיפية على كتفيها.

أدخلتني صالتها.

قالت: «أنت مجنون، اخلع ملابسك المبتلة، واجلس بالقرب من المدفأة».

رائحة الكربن المسلوقة تفوح من مطبخها، وبعد دقيقة خرجت بالشاي مع الكعك.

كنت قد صففت على طاولتها الوحيدة، أثاث شقة متكاملة.

صاحت: "واووو... جميلة وأين العروس؟"

كانت تتأمل لعب البلاستيك الصغيرة المصفوفة.

قلت: «أنت....».

أريد أن أتزوجك حالياً.. وأظن لا عذر عندك الآن وهاهو عش الزوجية».

ضحكت من أعماقها.. وارتجت ملامحها.

سرحت بعيداً.. وقالت: «أنتم طيبون».

«تفضل الشاي»، مدت يدها النافرة العروق بالفنجان، وارتعشت،

واشتد صوت المطرفي الخارج.

قلت وأنا أسحب الفنجان من يدها: «هل ما زلت تحبين مصطفى أكثر مني؟».

لفت شالها بإحكام حول كتفيها: «أنا لم أنجب أولاداً، وعندى بنت وحيدة لكنها بعيدة».

«مصطفى.. متى يعود؟».

قلت: «لا أعرف.. لكنه يفكر في السفر لفرنسا».

على باب بيتها، قبلتني شاكرة، ولفت على عنقي الكوفية.

«شاب جميل».

ووقفت توذعني، وأغلقت على نفسها الباب.

سلطان سلطان سلطان سلطان

مع اقتراب الصيف وصل وفد جديد من طلبة الدكتور الحرامي.

رحت للفندق وحملتهم جميعاً في أتوبيس واحد.

وذهبت لصديقتي صاحبة المخبز، قلت لها إن عمارتها خالية، وهؤلاء سيسكنون عندها، ويبدأ تسديد الإيجار بعد شهر، ووافقت وسكن بالعمارة عشرة أدوار.

بعد شهرين أخبرني أحدهم أن القط لا يسدد الإيجار.

سألت صاحبة المخبز، فقالت إنها لا تريد؛ لأن القط مسكين ومريض وليس عنده دراهمات.

وقالت: هذا صحيح؛ لأنه ضرب رأسه في الحائط أمامي، فانفتحت وتفجرت الدماء، أنا لا أريد إيجاراً منه، إنه مريض صدقي.

انتظرت حتى المساء، وقلت إنني سأبلغ عنه البوليس، إذا لم يسدد الإيجار.

تذكرت صاحبة المخبز الطيبة.

أرسلنا لها - أنا وصلاح الشيخ عيسى؛ ليشترى خبزاً.

وكانت تشكو؛ لأنها فوجئت بأننا نطلب عشرة أرغفة، وكانت في دكانها تصف الخبز، وكل رغيف مكتوب عليه اسم العائلة التي ستشتريه.

اليونانيون يأكلون قليلاً من الخبز.

في المطعم اليوناني نعمل برغيفين طوال اليوم، نقسمهما إلى شرائح، ونضع أمام الزبون شريحة أو اثنتين، والزبون غالباً يكتفي بقضم لقمة، ويتفرغ لأكل شريحة اللحم الفخمة والسلطة، أو يعود الطبق بالخبز كما كان، وفي نهاية المساء نأكل أنا وعاطف الرغيفين.

صاحبة المخبز سألت في دهشة: هل تبيعون الساندوتشات؟

وحلاً للمشكلة قلنا: نعم.

أرسلنا لها عيسى لشراء ثلاثة أرغفة «تريا أبسولي».

الخبز في اليونان «أبسومي»، وقضيب الذكر «أبسولي».

ظل الشيخ عيسى يردد: «تريا أبسولي.. تريا أبسولي».. على طريقة ألفية ابن مالك،

ودخل الفرن.

ابنة صاحبة المخبز عمرها أربعة عشر عاماً، زهرة جميلة، تتصدر المبيعات.

قال لها: «تريا أبسولي».

فاحمرت.

أعاد الطلب، فوضعت وجهها في الأرض وصرخت على أختها.
حضرت الكبرى، وكانت سبعة عشر عاماً، ولما سمعت صرخت:
«ماااامي».

خرجت أمهما بمريول القرن مهرولة.
بدأ عيسى يرتبك، ويعيد ما قال: «تريا أبسولي».

قالت الأم: نعم؟

قال: «تريا أبسولي أبسولي».

وأشار ناحية الأرفف المصفوف عليها الخبز في أكياس.

صاحت الأم: أبسووووومي.

«كالوبيزي»... شاب طيب.

وضحكت، وأفهمت البنيتين، أن من الواضح أنه لا يفهم.

وأعطته الخبز.

زارتنا أورانيا، في حفل خطوبة ابنة خالتها، المقام في مطعمنا.

إيلين نصحتني عدة مرات بأن أكلمها، وكانت تقف أمامي بالساعات
بالمايوه، تؤدي حركات الجمباز الإيقاعية التي تعلمتها في المدرسة، وتنظر
ناحية المطعم، تحدث معها قليلاً، وعندما غابت جدتها وأمها، وقفت على
عتبة بيتها واحتضنتها، وقبلتها فغابت عن الوعي، طفلة كانت، ومازال
مذاق شفيتها ورائحة أنفها وأنفاسها، يغرقني.

حضرت مع المدعوات، بفستان سواريه، ظهرها عار، ويدها وكتفاها، ونهداها عناقيد من النور، تنظر نحوي مسحورة، وأنا أدير المطعم وأقدم الطلبات، سألتها: «الآنسة هل تريد شيئاً؟».

قالت: «بيرة».

سمعت جدتها، وضحكت، وقالت: «نعم أحضر لها بيرة يا بني».

الأسر اليونانية تعود الفتيات على الشرب قليلاً قليلاً مع العائلة.

البيرة أمامها، وبدأت تشرب، وخطت أن أختطفها بأي عذر؛ لنتبادل القبلات في متاهات المطعم، كأساً وكأسين، وبدأت تنظر نحوي، حاولت أن أتواري، وعيناها تتبعاني، وتشرب، تجرعت الزجاجات، وبدأت ترسل نحوي قبلات في الهواء.

هتفت جدتها: «بني ساعدني من فضلك لنوصلها للبيت».

حملناها شبه نائمة، وهي تقبلني في الأحلام.

رحلت أورانيا إلى المدرسة الداخلية، لم أتزوجها، كنت خائفاً من مشكلات الديانة، والغربة، وعدم استكمال الدراسة، ورحلت دون أن أودعها.

فنادق الهوليداي إن والكارافيل والهيلتون، تصطف في وداعة بين هدوء الميادين الواسعة، والحدائق.

ومن بعيد تلمع اللافتة الزجاجية العملاقة:

المطعم العربي.

قطرات من المياه ترتعش بانتظام على لوح زجاج عملاق عند بوابة مدخل المطعم، وتتخلل بعض النباتات الخضراء، ورذاذ الماء ينفخ الندى البارد في حر أغسطس.

وفي الداخل كان صموئيل ينتظر..

تعارك صموئيل مع مانولي في مطعم بلاكا، وأصبحت كبير الجرسونات هناك.

واختفى صموئيل يومين.

قال إن هناك مطعماً فاحراً نشر إعلاناً يطلب جرسوناً يجيد العربية واليونانية والإنجليزية، وعاد ليطلب أن يعمل معه.

المطعم العربي أربع خيام ملونة: فوشيا وزرقاء وسيمون وخضراء، وبار مصفوف بأنواع الخمور.

على حوائط الخيام ترقص ثعابين الشيشة الملونة، والزبون المسترخي، يلتقط النارجيلة، من أحد المباسم، والخرطوم الطويل يرتفع بالأنابيب، وهناك من يقوم بتبديل التومباك والنارجيلة والمياه ونار الفحم في الدور الثاني.

هتف صموئيل: تعال بسرعة، كانت ساعة ذروة الغداء، عندما يهجم عرب الخليج من الفنادق الثلاثة على المطعم.

العرب متدينون يسألون عن مواقيت الصلاة واتجاه القبلة ويفضلون الخرفان المذبوحة إسلامياً في المطعم العربي والدجاج والحمام مع كأس من الويسكي.

تأنق عصام الجرسون وصف طاولة وكراسي عند مدخل المطعم واسترخى شخص مهم مع مجموعة أصدقاء، وكان الجميع يمرون من جواره في حذر. وتطلع نحوي قائلاً: «من فضلك كوب من الشاي».

لم يكن هذا وقته، ودخلت البار، والأطباق والطلبات تطير، وأعددت شياً سريعاً على الطريقة الصعيدية، غلت المياه وكمرت الشاي والنعناع والسكر، وأطفأت النار.

بعد عشر دقائق قال مبتسماً: منين؟

قلت: صعيدي.

قال ضاحكاً: واضح، من فضلك شاي صعيدي تاني.

رجعت لصموئيل وقلت: هذا الرجل يعرفني؟

ضحك قائلاً: طبعاً.. وأنت تعرفه.

وسط الزحام والعمل والذهاب من أمام توفيق بك والأستاذ توفيق تذكرت.

توفيق عبد الحي.

المليونير الهارب، صفقات الدجاج الفاسد وصورته في الأهرام.

في المساء وقفت أمامه، قال: صموئيل جرسون مدرب، ووقع في مشاكل مع الآخرين، ولذلك طلب أن تعمل معه، وتغلقا على أنفسكم خدمة خيمة، ومن الواضح أن صموئيل كان عنده حق.

وطلب أن أتسلم العمل من غد.

كنت أعمل في المطعم اليوناني حراً بالجينز والتي شيرت، فقال توفيق: نحن هنا نحافظ على القميص الأبيض والكرافت.

طباخ المطعم عم فراج النوبي، طباخ فندق فلسطين بالإسكندرية، كان جميلاً، ومتزوجاً من بيضاء سمينة، لا تتوقف عن الضحك.

من الساعات الأولى أحبني، كنت معتاداً على العمل الجماعي من المطعم اليوناني، أطلب الطلب وأدخل؛ لأشاركه، بتسهيل الأطباق وتجهيز السلطات، وترتيب سلال الخبز، وبقية الجرسونات، ينتظرون أن يصلهم المطلوب.

نشوي يومياً ثلاثة خراف بالمكسرات والزبيب.

بعد شهر، عقد توفيق اجتماعاً مع كل العمال، قال إن الوجبات حسب قانون العمل، يومان لحم، ويومان دجاج، ويوم سمك، ويومان عدس وفاصوليا، وطعام العمال سيقدمه عم فراج ولا أحد سواه.

والمسموح من المشروبات زجاجة مشروب سوفت واحدة وممنوع الكحوليات.

العمال نزحوا البار، زجاجات الويسكي والنيبيذ الفاخر اختفت.

صاروا خبراء في متع أصحاب الملايين، ويمزقون الخروف، لطعامهم، قبل أن يأكل الزبائن.

آخر المساء حدث تمرد، وكان صموئيل غاضباً، واستدعانا توفيق، وقال إن هذا الكلام لا يقصدنا على الإطلاق.

أحمد الجرسون بالخيمة المجاورة، أصلع نحيف جداً، كان راقصاً في فرقة رضا، يعاشرفتاة يونانية وفقاً لقواعد ثابتة، ألا تتزوجه، ولا تطلب شيئاً، يشتاقت أحياناً، فيضع شريطاً في كاسيت المطعم، وتنساب ألحان علي إسماعيل.

يحكي أحمد عن أيام التدريب في معهد الباليه، والقسوة في الرياضة حرصاً على الوزن؛ حتى أصبح كسلك كهرباء غير قابل للزيادة.

لا يعرف عن أبيه شيئاً، وبين الحين والآخر يتسقط أخبار مصر، ويهز رأسه ويكرر أنه لا يريد أن يعرف عنها شيئاً.

تاجر في السيارات، يشتريها من ألمانيا، ويقودها لليونان ويبيعها ويكسب.

وفي الشبورة والضباب طار عالياً وتداخلت الصور.

قطعوا نصف أمعائه، وتعرض لجراحة دقيقة للمخ، وترك السيارات ونزل على الأرض.

عصام الجرسون الآخر قريب المدام فاتن الأشوح، زوجة توفيق، سكندري قصير، أبيض ومتأنق لأقصى درجة، وشعره يلمع، ويعترض على كل كبيرة وصغيرة باعتباره الخبير الأوحده في فن الإتيكيت.

دخل البار بحثاً عن أكواب، وكنت أنظفها لأحصل على مجموعة منها على صينية لتشغيل خيمتنا، فقال: «بسرعة..بسرعة.. جهز لي صينية».

كان على كل جرسون أن ينظف أكوابه بنفسه، فقلت: «يا عصام ما تجيب بوسه؟».

كان الضوء في البار خافتاً، وأحمد الجرسون يمر خلفنا، واحمر وجه عصام وصرخ: «مش ممكن الناس دول منين؟».

آخر المساء استدعاني توفيق عبد الحي ضاحكا وقال: «ماذا قلت لعصام؟».

زبون بملاح شرقية، ظل لأسبوع يرتاد المكان، ويقعد في خيمتي بالتحديد، وكنت أداعبه، وكان مكتئباً ووحيداً دائماً.

بعد سداد الحساب والبقشيش، قال: "أريدك" كانت الخامسة عصراً، قال إنه سيسافر بعد ساعات ولن يراني مرة أخرى، وأنه طلبني ليقول لي ذلك، وأنه سعيد بمعرفتي، وأنه كان يأكل عندنا؛ لأنه يعاف أكل الخنازير، وقال إنه إسرائيلي، وشعر أن من العار أن يخفي ذلك عني، لأنه لا يشعر بالعداء تجاهي، قال: أنا أحبك وأشعر بالإحباط لأننا أعداء على الخريطة، وقال إنه سيرحل، لكنه يرجو أن أتذكره بالخير.

تشيلدا مضيقة الطيران الألمانية، في الأربعينيات، تقيم بمطعمنا، قميصها الأبيض مفتوح دائماً عن حمالة ثديين حمراء، يقفز من داخلها ثديان ممتلئان، وتنورها الأزرق قصير ومشقوق من الخلف، والأولاد يضاجعونها، تحب بلاد الشمس، وهاربة من برودة الألمان.

في أحاد الشتاء، المطر والثلج، يلوح دفة سوق مونستراكي، بأسقفه المغطاة ودكاكينه الضيقة.

هنا يباع كل قديم وجديد ومستعمل.

والأسعار مذهلة، بعشر دراهمات: بنطال، أو قميص، هذا غير التحف والهدايا،

شورتات للبحر، وبدل جديدة، وفساتين، بالأكوام، يفتحها المغامرون على الرصيف ويصرخون «الإذو» تعال هنا!

وفي الدكاكين تصطف الأحذية، وأقمشة الستائر الشهيرة، وأدوات المطبخ.

تلك البضاعة بلا عيوب تقريباً؛ لأنها بواقى المحلات تتخلص منها، قبل الموسم الجديد، والويل للدكاكين من الموضة الجديدة؛ بمجرد ظهور موضة جديدة في البنطلونات، كل كميات البنطلونات القديمة ستنزل لسوق مونسترأكي.

كان سوقاً ممتعاً، من أول عيون البنات اللاتي يتجولن، مستمتعَات بالتهام الساندويتشات والفظائر السريعة من الباعة الجائلين، وصولاً لخفة دم البائعين، وتنوع البضاعة المذهل، من معاطف فرو ثقيلة لمايوهات وملابس داخلية.

كثيراً ما شاهدنا نجوم الفن في بلادنا يتسكعون في مونسترأكي للشراء، ولا يلتفت لهم أحد.

اشتريت لخالتي تولا عقداً بمائة دراخمة، بلون الفيروز، وسواراً إفريقياً من العاج بخمسين دراخمة لسولا، ورجعت في الخامسة؛ لأجدهم في الحديقة، وقلت لهما إن الشرع في بلادنا يسمح للرجل بالزواج من أربع، ولهذا - وقتلت شاربي - سأتزوج منهما فوراً، وشفقت خالتي تولا ضاحكة للفكرة، بعد أن طوقت عنقها بالعقد، وقبلتني في خدودي، وصبت من أجلي الشاي، وجلست سولا تتأمل جمال السوار.

قالت سولا في المساء إنها لم تمارس الجنس أبداً، وقلت لها إن هذا غير مهم لأنها مازالت صغيرة.

وقالت إن البنات في المدرسة يتحدثن عن مغامراتهن مع أقاربهن وأولاد الشارع، وإنها ذهبت معهن لحديقة لمقابلة بعض الشباب، لكنها تذكرت جدتها وهربت، وضحكن عليها.

قلت: ذلك أيضاً لا يهم؛ لأنك أجمل منهن جميعاً.

قالت: وهل الرجل يحب البنت الخجول، التي بلا تجارب، قلت: في بلادنا يعشقونها بجنون.

قالت: البنات يقلن إن الرجل اليوناني لا بد أن يمارس الجنس مع محبوبته قبل الزواج، لكنني لا أريد توريط جدتي في مشاكل.

ماتت أم سولا، وغاب أبوها، وعاشت مع كيريا أنا ماريا جدتها؛ لترعاها.

عند الباب قلت لها: هل تصدقيني؟

قالت: نعم.

قلت: أنت أجمل بنات أثينا.

قالت: وأنت أجمل رجل في العالم.

وقبلتني في خدي، وهرولت تغني صاعدة على السلم الخشب، ولوحت جدتها من الشباك.

-١٩-

زار المطعم العربي رمضان المسيحي.

لا أعرف كيف عرف العنوان؟

كان معه صديق.

قال: «رابع.. جزائري»، وغمز بعين.

سألته عن أحواله.

قال إنه هذه الأيام يضحك على المسيحيين، يعرف أنهم يراقبونه، ويقابلهم بعلامة التثليث، لكنه يصلي ويقرأ القرآن، بمجرد أن يغلق الباب.

كان من الواضح أن رابع الجالس معنا لا يفهم من كلامنا إلا الأسماء.

وأن رمضان صار ضليعاً في الإيمان.

رابع، يجيد الفرنسية واليونانية.

مولود في أوروبا، لكنه مسلم، ولا يريد أن يكون على ديانة أعداء الإسلام.

هكذا قال رمضان، وانتفض رابع عند سماع اسمه، واستخرج من جيبه كتاباً، وقبله، ووضع على رأسه، توقعت أن يكون مصحفاً، لكنه لم يكن مكتوباً باللغة العربية.

قال إنه يريد أن يتعلم الإسلام.

وابتسم رمضان منتصراً؛ لأنه سيدافع عن المسلمين.

وكان من الواضح أن رابح لا يعرف أن رمضان مسيحي.

وقال رابح أريد أن أعرف كيف أكون مسلماً من وجهة نظر الله
ونبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه.

كتبت ثلاث آيات من قصار السور، والفاتحة، ولخصت خطوات
الوضوء، والصلاة.

تابع ما أكتب باهتمام، وقال هذا أفضل، واستخرج من جيبه الكتاب
مرة أخرى، وقبله قائلاً: «أنا مسلم والقرآن الكريم».

وقال رمضان أريد نسخة مما كتبت.

رابح قرأ النسخة وقال: هذا الكلام المكتوب بالعربية، من المصحف
والقرآن، وقبله، ووضع على عينيه، لكنني لا أقرأ العربية، أريده
بالفرنسية أو اليونانية.

نظرت نحو رمضان وقلت: لا أعرف كيف أترجمه.

قال رابح: لا.. لا تترجم، أريد أن أعرف كيف أنطق الكلمات بالعربية،
فأنطقها وأكتبها بالحروف الإنجليزية، أو اكتبها أنت بالإنجليزية،
الوضوء فقط يمكنك شرحه بالإشارة، وسأكتب الخطوات.

بعد يومين حضر رابح مع رمضان، وحصل على الورقة المترجمة ودسها
في جيبه.

في فترة الاستراحة خرجت معهم، وبدأت أشرح لرابع فرائض الطهارة
والوضوء، وكان يسأل عن التفاصيل.

سأل ما أفضل موعد للتطهر والصلاة في السنة؟

قلت: ربما يوم وقفة عرفات.

لكن المسلم يجب أن يصلي خمس مرات يومياً، هذا غير النوافل.

قلت ذلك ولم يستوعب ما أقول، واستعاده عدة مرات.

قال إنه كان يعتقد أنه سيكتفي بإشارة إلى الله، كما يفعل المسيحيون، وينتهي الموضوع.

وسأل بالحاح: كل يوم خمس مرات؟

قلت: نعم.

قال: أتوضأ خمس مرات، وبعدها أصلي خمس مرات.

قلت: نعم.

وكان واضحاً أنه تورط.

قال إن ذلك كثير جداً.

خرج وهو يردد: «كل يوم.. كل يوم؟».

سأل: هل يمكن أن أؤديها كلها مرة واحدة في الصباح؟

قلت: لا.. طبعاً.

قال ليس معقولاً أن أصحو من الفجر، وأظل أصلي طوال اليوم، أكيد هناك نسخة مختصرة لكنك لا تعرفها.

أنت عالم بالإسلام؟-

قلت: لا.. لكن ذلك الحد الأدنى.

لم يكن رمضان مقتنعاً، ولكزني غاضباً:

«يا عم إديله أي حاجة خفيفة.

بقي أنا أجيب لك الراجل يدخل الإسلام تخرجه من الإسلام؟».

أقام توفيق عبدالحى حفلاً فاخراً.

في المساء توافد على المطعم مئات الفلسطينيين، معظمهم من الجرحى، عقب اجتياح إسرائيل لبنان.

وغنت فيروز على الجبل لصالح فلسطين.

وحضر نادر شقيق توفيق، صول مدرب صواريخ بالجيش، سافر لروسيا، وأخرجه توفيق من الجيش، بعد الحرب، وصار من كبار تجار الأدوات الصحية، ولما هرب توفيق تطوع نادر ببيع سيارات شركة توفيق "أريك" وأثاثها ومحتويات المكاتب، وكانت كلها تحت الحراسة، وبعد الإبلاغ عنه هرب وانضم لشقيقه.

من الأيام الأولى لم تطلق زوجة توفيق فاتن الأشوح شقيق زوجها نادر.

وبعد ثلاثة أشهر، طرد توفيق شقيقه، وزرته في البيت، وطلب خمسمائة دولار.

كان ينام بلا بطانية، وأعطاني خطاباً لزوجته في كفر الدوار، لأسترد المال.

كانت تسكن فيلا من دور واحد، وجاءت بجلباب، وقرأت الورقة، وقالت إن أشقاء نادر يسعون لطردها من البيت، وتعيش على مساعدات أبيها ومعها ثلاثة أطفال.

وانصرفت.

قالت: هل تريد الورقة؟

قلت: لا.

علي رصيف كافتيريا ميدان أمونيا، يطير الحمام، والجرسونة
السمراء الدافئة ليلى، ترفرف بالميتي جوب بلون الشاي بالحليب، والقميص
الأبيض، أفريقية الجمال، عينها السوداء وان ورموشها الطوال تبارك
الخلاق، ونهداها يرتجان بعنف، والجوب ينحسر عن مؤخرة وساقين
سمراوين، يعجز عن مجاراتهما بنات أوروبا.

عاكستها كالمعتاد، وجاءت صائحة بوجهها البشوش: «إنت تاني؟».
قلت لها إنني ساحبها للأبد، وسأقرأ جريدة الأهرام، وأنصرف.

وأعطيتها وردة برية من جبل بلاكا، فابتسمت ووضعتها في عروة
الجاكت.

تساقط الجليد، وراقصات الإستربتيز، في البار المجاور لمطعمنا، يحضرن
لطلب طبق من حساء العدس، ويسألن عن الثمن، الحال من بعضه، كساد،
والعرب لا يحضرون في فصل الشتاء، وبعد ولائم الصيف التي كان يسدد
ثمناها شباب الخليج، قالت سنكا خفيفة الروح: أريد طبقاً من السلطنة
اليونانية، وغمزت صديقتها جوليا بأنها معها، ووضعت أمامهم طبقين،
وقلت: «الحساب طبق واحد ٥٠ دراخمة»، ومنحتها قبلة على الهواء.

على طاولات البار الحمراء، في آخر الليل، جلست لأحتسي زجاجة من
البيرة، وسط خمس فتيات يستلقين على البار، بلا عمل.

خلعت لولا ملابسها الخارجية والداخلية السوداء قطعة قطعة،
واستدارت لتداعب عاموداً معدنياً عند منتصف بقعة الضوء، ورفعت
إحدى ساقها، واستخرجت من حقيبتها الصغيرة زجاجة بيرة، ظلت تداعبها
حتى أدخلتها فرجها كاملة؛ ليسدل الستار، على آخر العروض، وصفق
الحاضرون، وكانوا ثلاثة.

لم أكن أسعد حالاً من فتيات البار، أعمل عند هارب، من أجل ألفي دولار، وأضعت عاماً دراسياً، ووسط البرد والكسل، زارنا زبائن، ثلاثة جلسوا للأكل، وأحدهم دخل منفرداً، وذهب لبار المطعم، وطلب كأساً، وضعت أمامه وانصرفت، فقد كان البار مهجوراً، ونسيت إشعال النور.

بعد قليل اعتذرت عن الضوء، ووضعت أمامه زجاجة نبيذ، كما طلب.

المطعم استغنى عن عامل البار في الشتاء توفيراً للنفقات، وأقوم بدوره إلى جانب عملي، وبادرني الجالس على البار قائلاً: زجاجتان بيرة. «بيرة على نبيذ؟».. قلت في نفسي.

كان مازال بمفرده، وفتحت الاثنتين ووضعتهما أمامه، فقال: اجلس، أريد أن أتحدث معك.

أزاح إحدى الزجاجتين نحوي قائلاً: اشرب بيرة على حسابي. وكنت ما أزال واقفاً.

كان يضع نظارة ظلّالها سميكته، تخفي ملامح عينيه، ويرتدي بدلة من الصوف وكوفية.

سأل: مصري؟

قلت: نعم.

فقال: تعال لأقرأ لك الكف.

خبير الكفوف حضر في الخامسة عصراً، وقطع ساعة الراحة بين الفترتين الصباحية والمسائية، فقلت: أنا لا أؤمن بالطالع.

قال: أنا أعرفك، وأعرف عن صاحب المطعم أشياء أخرى.

قلت: أستاذك.

بعد قليل رجعت للبار.

سأل: هل تريد العمل في الخليج؟

قلت: لا.

قال: «ليبيش.. تشتغل هناك بين أهلك وإخوانك».

قلت في ضجر: لا أريد.

قال: كم راتبك هنا؟

قلت: أعمل مجاناً.

كان قد بدأ ينفض، ويدا واضحاً أن وجهه يفتقد الوسامة.

قال: أنت تتعمد إهانتني، أنا عميد شرطة وأمير، واستخرج بطاقة من جيبه عليها صورته بسترّة العسكري، فقلت أهلاً وسهلاً، لكن لا أريد أن يكفلني أحد.

في المساء حضر؛ ليقول لتوفيق عبد الحي إنني أهنته، وضحك توفيق وعرض أن أصالحه وأعتذر.

جاء ماركو عامل صيانة الكهرباء في بار الإستربتيز المجاور، قال إن الرجل خرج من عندنا، ودخل البار المجاور، فطلب لكل طاولة زجاجة من الويسكي، ثمّنها راتبي في شهر.

ووضع على رأس كل بنت من البنات طوقاً من الدولارات، أما ليندا فقد وقع في هواها، ويطوقها يومياً بعقود الدولارات، ولاحقه صاحب البار مجنوناً؛ ليحجز المنضدة الأولى، ويمنع الناس من الاقتراب منها، وبعدها أغلق البار، وصار يقدم العروض لشخص واحد فقط.

قال ماركو إن البنت المسكينة طيبة، وأهداها الأمير الطيب شقة تساوي نصف مليون دولار، قبل أن يرحل.

عم فراج لمحني أنصرف.

صاح: «تعال يا مجرم مش هتاكل؟».

قلت: «لاا يا عم عدس وفاصوليا؟».

«طب بس تعال، وهات سرفيس».

أحضرت طبقاً ووقف أمام إناء ضخمة، واغترف من العدس الأسود.

قلت: «إيه دا يا عم؟».

قال: «اصبر».

وسحب شوكة غرسها في بطن الدست، وأخرجها تنزلق منها الكوارع.

نصف عجل كان يصلنا يومياً في الصيف، وتراكت المقادم.

رتبت طبقاً من الباذنجان والطرشي، وزجاجة بيرة؛ لألتهم طبق

الكوارع بالعدس الأسود، ومن جماله طلبت طبقاً آخر إضافياً، لم أكل الكوارع التي أعشقها منذ عام.

زارنا جرسون جديد، طالب بكلية الهندسة، وتسريت معلومة بأنه -

جورج كان مسلماً، وفي اليوم التالي خرج ولم يعد، وقال أحمد.

زمان أحببت بنت في زمن الممالك رجلاً مسيحياً، وجلدوهم معاً؛

لتتراجع، لكنها أصرت على حبها، وعندما أغرقوهم في النهر، كان

كلاهما يحتضن الآخر.

لماذا يعتبر المسلمون أن دينهم بوابة من يدخل فيها لا يخرج منها؟

الدين حرية.

قال عصام: المسلمون الهمج هم أصحاب الديانة الوحيدة التي حافظت

على أصحاب الديانات الأخرى كاليهود والمسيحيين، وأوصت بحسن

التعامل معهم، حدث هذا بينما كانت المذابح في أسبانيا على أشدها عقب انحسار الجيوش العربية بالاحتلال التركي، وأجبروا السكان الموريسكيين بمحاكم التفتيش والإعدام على التنصر.

الحكام العرب المسلمون كانوا قادرين على أن يفعلوها، ويحدث تطهير عرقي في المنطقة العربية، على الأقل، وقوتهم كانت تسمح، لكن دينهم يمنعهم.

قال أحمد: حدث هذا التطهير العرقي، أين نصارى نجران، ويهود خيبر والمدينة؟ هل تبخروا؟ أجبروهم على الهجرة أو أسلموا بحد السيف، ومعظم الموجودين في مصر من المسلمين من أصول مهاجرة مغاربة وسودانيين وشوام ومن الحجاز، وطغوا على المسيحيين أصحاب البلد.

عم فراج: "أنت بتقول كلام فارغ، أنا نوبي وجدي اسمه بطرس، النوبيون كلهم بلا استثناء كانوا نصارى، وهم من السكان الأصليين، وكلهم دخلوا الإسلام مرة واحدة، ولن تجد نوبياً مسيحياً، حدث هذا في وقت متأخر جداً في أيام صلاح الدين، هؤلاء دليل واضح أن الأغلبية المسلمة من المصريين نصارى آمنوا بالإسلام."

سيد: ولاحظ أن النسطوريين الذين لم يؤمنوا بالتثليث، وكانوا مسيحيين يؤمنون بالتوحيد، هؤلاء جميعاً دخلوا الإسلام لاختلافهم مع الكنائس الأخرى.

قال عصام: عموماً إحنا طردناه ابن الكلب الوسخ.

«هي هي هي... الأستاذ توفيق أول ما دخل قال: شغلوا لنا قرآن، عشان يفهم».

قال أحمد: "ما إحناها نفضل متخلفين، مفروض ما حدش يسأل حد على حكاية الدين دي خالص."

عم فراج: «يا عم ده واد دنيء ضحك على البنت الكوافيرة اليونانية في ميدان أمونيا ونهب فلوسها بحكاية التنصير دي».

أحمد: «العيال دي كترت.

وهوده يقدر يرجع مصر؟

لا يا عم ده المباحث هناك يسحلوووه».

«يا عم هم اللي هناك دريانيين؟»

ما عمك توفيق أهو قدامنا وبنقعد معاه كل يوم وتفتح الأهرام كاتبين لك إن مصر تبحت عنه في كل مكان والإنترنت.. وكل يوم السفارة المصرية بتاكل عندنا بالكامل»

«لاااا.. والأدهى توفيق كل يومين يقعد يكلم عثمان أحمد عثمان.. وعارفين مكانه كويس... وجواز السفر بيروح السفارة ويرجع مختوم ومتجدد».

«ولانكتة الأهرام، من يومين نشرنا تحقيقاً عن قصص النجاح في الخارج، وكانت الحلقة عن اليونان، استضافوا ٨ نماذج ناجحة، منهم أربعة انتصروا، ومنهم طبعاً حبيبك جورج، ونشروا صورته، وأنه كافح وغسل أطباقاً، لغاية ما افتتح كوافير حريمي في أهم ميادين أثينا، وهو سرق البنت الغلبانة وضحك عليها».

«الأزهر فين؟»

أحمد: «في مصر العيال بالذقون يكبروا لأن واحد مسيحي أسلم، وهنا بيهللوا عشان مسلم انتصر، والاتنين أولاد كلب»

للعيد الكبير أجازة رسمية ثلاثة أيام من المصنع والمطعم، ٧٢ ساعة من الحرية وقالت سولا :نسافر.

ارتحلنا في الفجر والجو صحو والبيوت نائمة، نتجول ونغني في شوارع شبه خالية، سألتها: ولماذا اخترت هذه القرية بالتحديد؟

كنا تحت جدار، في طريقنا لأقرب كافيتريا بميدان القرية الوحيد، ولم أكمل السؤال عندما سقط فوقنا طحين بكميات أغرقتنا في تراب أبيض، نظرت لأعلى صارخا ومحتجا، فلم يجاوبني سوى ضحكات.

وقفنا بالقرب من مقاعد المقهى ننفض أنفسنا، ومرقت بجوارنا سيارة مكشوفة، كل وجوه أصحابها زرقاء وحمراء وصفراء، وعند محاذاتنا قذف هؤلاء في وجوهنا بقنابل لطختنا بالألوان.

كان من الواضح أن كل سكان القرية مجانين.

قلت لسولا : لنرحل.

نظرت نحوي مرتبكة بشعرها الغارق في التراب، والحبر الأحمر والازرق يلطخ قميصها وسروالها،

من الشوارع الجانبية جاءت مجموعات، كانوا مثلنا غارقين في الدقيق والألوان، والأولاد والبنات يتبادلون القبلات، ويرفعون العصي والفؤوس والبنادق ويتقدمون نحونا.

صرخت سولا، ووقفت خلف ظهري تحت الجدار، فسقط فوقنا من جديد الطحين، كان واضحا أننا سنهاجم من كل مكان، وتقدمت الجموع، اقترب أحدهم من سولا، خلعت عصا مظلمة المقهى من الأرض واندفعت نحوه فجري هاربا، وبعدها أصبح الجميع يضحكون ويشيرون

نحوي، ووجدتني ألث خلف كل هؤلاء كلما اقترب أحدهم من سولا.

أحاطوني بالعشرات، وتعثرت مع عصاي بالرصيف، وهجموا على سولا.. فصرخت: لا تخف، لكنهم أغلقوا فمها وحملوها بعيدا.

في عامود نور بوسط الميدان، قضيت ساعتين، مقيدا وأصحاب الوجوه الملونة يتشممون رائحتي ويصرخون ويضربون صدورهم، بعضهم على رأسه قرون كبش، أو رأس أسد، ويبصقون على الأرض غضبا عند رؤيتي.

كانوا يزحفون وتزايد أعدادهم في كل الميدان، أحدهم يمص ساق الآخر، أو يثبت جناحين ويحاول الطيران في الهواء، وقتاة تجردت من ملابسها فكستها الأخرى بالألوان، وآخر يعزف على أكورديون ممزق لحنا لا يسمعه أحد سواه وهؤلاء الذين يرقصون ويتبادلون القبلات على نغماته ويتجرعون الخمور بكل أنواعها، وبعضهم مستغرق لأقصى درجة في تقبيل فتاته، أو قتل شاربته طويلا طويلا ليسقط على الأرض.

لم أكن نائما، وكنت خائفا.

إحداهن جاءت من خلف ظهر الجميع، كان قميصي ممزقا، ويديا خلف ظهري، جميلة بشورت قصير ونهدان ولا أحلى، نظرت نحوي، وطبعت قبلة ناعمة على خدي..

أحضرت خلصة سكين، وفكت وثاقي.. واحتضنتني..

قلت لها: أريد سولا.. أشارت لحارة ضيقة.. ورمت فوقي ثوبا يخفي ملامحي ومن بين المخمورين في الميدان، وجدتها هناك نائمة، رفعتها على ظهري ودخلت أحد البيوت.. ووسدتها الأرض وأغلقت الباب ووقفت مع من أنقذتني لأراقب ما يحدث.

قالت إنها لا تمانع أن أقبلها، واقتربت بشفتيها من وجهي، كانت يديا على خصرها الجميل، مسحت جبينها من التراب وقلت لها: إنني خائف وأريد

النجاة بأختي سولا فقالت عابثة في إغراء: لن أساعدك إلا إذا قبلتني الآن.

بيننا الظلام، وروائح الطحين وصرخات الجنون في الخارج وأصوات الموسيقى والألوان، وأراحت يديها فوق كتفي، وارتعشت من دفء نهدتها .

زعم صوت بوق طويل، وانفجر الميدان بالأصوات والرقص والغناء والفرح، ونظرت أنا وهي من خصاص النافذة، وأهل الناس من كل مكان، ووقف بعضهم تحت نافذتنا ليشير بأن ننزل .

قبلتني صديقتنا المجهولة قبلة طويلة وخرجت هاربة.

وكانت سولا .. قد استيقظت .. وتضحك.

احتضنتني بشدة...

قالت إن كل هذا تمثيل وأن اليوم عيد الدقيق، عيد استقلال القرية وتدمير الأعداء ، تمهيدا للاثنين النظيف، لتطير الطائرات الورقية ويبدأ الصوم الكبير.

عيد وثني اختلط بالمسيحية، يطلق عليه باللغة اليونانية "كاثاري ذفتارا"

والأولاد والشبان والصبايا يهربون للهضاب والوديان والحدائق والهواء الطلق لإحياء تقاليد بدء الصيام الكبير، وإطلاق العنان للموسيقى والأغاني والرقص والمرح وتذوق خبز "لاغانا" و"الكبيس" والحلاوة وثمار البحر والقريدس والكلماري، وترتفع طائرات الورق في الفضاء ، لاستقبال فصل الربيع.

قالت سولا إنها لا تصدق أن هناك شخصا يمكن أن يموت من أجلها ويحملها ويغلق عليها الباب ويستعد للدفاع عنها بالسلاح ضد قرية بأكملها.

من كيسها الصغير استخرجت دبوسا، وأمسكت يدي قالت: "لا تتألم" ووخزت إبهامي ووخزت إبهامها . ووضعت دماءها على دمي.
قالت : تلك عادة وثنية، لكن المسيح لن يغضب لأنني أحبك.
رقصنا حتى الصباح .
ورجعنا إلى أثينا في آخر أتوبيس غارقين في الدقيق والألوان.
وهي نائمة على كتفي.

تمنيت أن يغرق المركب قبل أن يصل اليونان.

على باب المطعم مرانان من الشباب المصريين يحملان حقائب، لا يعرفان أحداً في أثينا، ولم يكن لديهما سوى ورقة بداخلها اسمي، ويسألان عن عنواني، قالوا إن صديقي نبيل أعطاهم الورقة، وسيمر على ميلانو بالباخرة، وبعدها ينزل في أثينا، وأنهما تقابلا معه في ميناء الإسكندرية، أدخلت حقائبهما، وبعد الإغلاق أسكنتهما في إحدى الشقق.

نبيل عبدالعظيم بطل الماراتون، منافس محمود العلواني، كالنعامة ساقاه لا تحملانه، يعدو في التدريب خمسين كيلومتراً، تنقص وزنه ٧ كيلوجرامات، ويعود عاجزاً عن الابتلاع والمضغ، ويشرب بحاراً من اللبن، المانجو، الكركديه، العسل، وفي اليوم التالي يأكل حتى ذراعك.

كنا في مدينتنا البعيدة قبل المنافسات نتجمع في معسكرات للتدريب، ونتقابل في مطعم الحاتي أكثر من ٣٠٠ لاعب للأثقال والطائرة والكرة وتنس الطاولة وألعاب القوى وكرة اليد، ويقف بلبل ليطلب من كل هؤلاء الثيران: لا تلقوا أي بقايا زائدة، وكان يأكل كل الباقي من اللحوم والفاكهة والخضراوات.

وفي المساء نقف معاً؛ لنشتري ٢٥ رغيف فينو وثلاثة أرطال لبن غير البيض والجبن واللانшон وعلى حصيرة النادي يأكلها وينام جانعاً.

ووزنه لا يزيد على ٥٠ كيلوجراماً.

«إنت سافل يا بلبل».. هكذا كنت أداعبه دائماً، وكان يضحك مطرقاً ولا يرد، كان مؤدباً لدرجة زائدة ومن أسرة متدينة، ويلعب معنا الشطرنج ولا يشتم أحداً.

جميعاً يبدأ العيد.

اليونانيون في ليلة رأس السنة والأعياد يكسرون الأطباق، ويلعبون الورق لاختبار حظ العام الجديد، ويلقون بالأكواب والأواني من النوافذ ويحتسون الأوزو ويرقصون حتى الصباح.

آخر المساء عجوز تقف على المحطة تنتظر الأتوبيس، وفي نهايات الليل يطول الانتظار، فستانها فقير وحجمها ضئيل، ولا تتوقف عن الحركة.

تسأل كل الواقفين على المحطة لتقطع الوقت.

سألتني: من أين أنت؟

قلت: مصر.

ظلت تروح وتجيء، وتسألني ماذا تعمل؟ وأين تقيم؟ وهل سيتأخر الأتوبيس؟

كان الحوار مملاً.

ولما سألتني: لماذا تبدو مرهقاً قلت: لأنني أعمل كثيراً، لأتزوج.

جاءت في اليوم التالي مهرولت، وسألت إنت مسلم؟

قلت: نعم.

قالت: وستتزوج؟

قلت: نعم قالت: ولماذا ترهق نفسك لهذه الدرجة؟

فقلت لأنني متزوج من ٦٣ امرأة بينما شقيقي متزوج من ٢١٣ امرأة وهذا ليس عدلاً.

تركت كل الواقفين على المحطة.

٦٣ امرأة؟

وأقول: نعم، فتختبئ في ركن؛ لتشير بعلامات الصليب، وتعود لتسأل: أين يسكن؟ وأقول: في بيتي، وهل بيتك ٦٣ طابقاً؟ وأقول: لا.. إنها غرف مكتوب عليها واحد اثنان ثلاثة.. وهكذا.

تهمس لجارتها بقصتي وتحضر مهرولتة، وهل تنام معهن جميعاً؟
قلت: نعم.

- وعندك أطفال؟ وكم عددهم؟
لا أتذكر ربما ١٢٥.

- وهل تعرف أسماءهم؟
ليس ضرورياً.

سألتها: وأنت هل عندك أولاد؟

قالت: بنت وحيدة، قلت: جميلة؟
قالت: جداً.

قلت لماذا لا تزوجيني ابنتك؟ فابتعدت خائفة.

شاهدتني مبتسماً وسعيداً.

قلت لها اليوم تزوجت ثلاثة.

قالت: واووو سافرت مصر؟

قلت: لا تزوجتهم وأنا هنا.

قالت: وماذا يفعلن الآن؟

قلت: زوجاتي القدامى يجهزنهن بالاستحمام والعطور والتدريب حتى

أرجع.

بيوت الدعارة في أثينا درجات، بعضها فنادق فاخرة في باليو فاليرون،
أو يعرض خدمات عبر كاتالوجات بأسعار خيالية.

البيوت الشعبية، أغلبها يتناثر على الجانبين في شارع بيريروس، بيوت
غالباً من دور واحد، يميّزها مصباح مضيئ أحمر أو أزرق أو أصفر.

كانت تلك البيوت نزهة طلاب الثانوي والإعدادي.

يقصد البيت تلاميذ فصل بالكامل.

أغلب البيوت سلالمها خشبية، ويدقون على السلالم بأقدامهم أثناء
صعودهم: طاخ طاخ طاخ.

تخرج العجوز للتفاهم معهم، وتصر مجموعة الفصل على رؤية
الفتاة، ويتشنج أحدهم ممسكاً ما تحت بطنه معلناً أنه يريدّها الآن، ولا
يستطيع الانتظار.

بمجرد خروجها تمتد أيديهم على جسمها، وترتفع الصفافير إعجاباً
بجمالها،

وفي ثانية تصدر إشارة سرية، ويندفعون جميعاً هاربين على السلم.

لو كانت البنت قبيحة، يا ويل العجوز.

يشتمونها عند النزول على السلم بأقبح الألفاظ.

ويندفعون ضاحكين للمرور على بيت آخر.

وكنت مدمناً لبيت آخر.

كان على ما أعتقد أحقر بيت دعارة في أثينا.

بيوت الهوى عادة مكيفة ومجهزة بأثاث فاخر.
إلا هذا البيت.

من الباب، تصطدم بحبل غسيل (منشر) تعلقت عليه ملابس داخلية.
وفي وسط الصالة العارضة موقد فتايل، فوّهة طنجرة يغلي بداخلها
طبخ وبقايا بصل وأطباق.

مومس البيت تعمل بمفردها بلا عجز، لأنها عجوز أصلاً، وكشرها
يتدلّل أمامها.

قبل أن تخرج ترد من وراء الأبواب لتوريط الزيون؛ ليدخل الغرفة، بأن
البنّت حلوة، وموافقة على مضاجعتها من الخلف والأمام وبأي طريقة
كانت، ولو وقت طويل.

والسعر مناسب ٥٠٠ دراهمة.

وكنّت أعشق الذهاب لمناغشتها والهروب سريعاً، وتزداد المتعة عندما
يдахمها سيل الطلاب؛ فأندس بينهم وأهرب معهم.

قبل أن أسافر عائداً لمصر، حرصت أن أودعها.

جاوبتني من خلف الحائط على كل الأسئلة.

وكان لباسها الأخضر يتدلّى علماً من السقف وعلى الأرض قطعة
نائمة وبعض الملابس المتسخة.

استمعت إليها طويلاً؛ حتى لم تترك لي حجة.

وأخيراً خرجت، لا ترتدي غير لباسها التحتاني الأحمر.

قصيرة وقريبة الشبه من البطيخة.

سألتها، هل تشترطين استخدام البلاستيك (الواقى الذكرى) للحماية
الصحية؟

قالت: نعم.

أغلق بلبل باب الشقطة، وألقى المفتاح من النافذة.

وأكمل سيد الممدد كجوال الخراء: «مؤتتي من الضرب... أنا عايز حقي».

رفسته، وطلبت من بلبل أن يحزم حقائبه، لينقلها عندي.

في المساء مر على المطعم رجل أعمال يوناني يبحث عن عامل، وذهبت لمقابلته أنا وبلبل، وبعربته انتقلنا خارج أثينا عند ناصية مرساة، وركبنا زورقاً، وأصبحنا في قلب جزيرة، لا أحد عليها، سوى بيت من طابق واحد.

قال إن المطلوب عامل لصناعة الطوب، فهل لديكما خبرة؟

قلت: لا.

فهز رأسه أسفاً.

قال: «سوف أعلم من يعمل تجهيز المون وكيفية صبها في القالب».

قلت: «والحساب؟».

قال: «لا أتعامل بالأجر بل بالإنتاج الألف طوبة الأولى سعرها ألف دراخمة والألف الثانية سعرها ألف وخمسمائة دراخمة والثالثة ألفا دراخمة، قلت والخامسة؟ قال متحكماً: أعطي ثمنها ثلاثة آلاف دراخمة».

في اليوم التالي ذهب صاحب المصنع للجزيرة، كان قد ترك بلبل على ظهرها، مع الطعام والشراب، على أن يستيقظ فجراً للعمل، وفي الغروب سأله الأفنديكو (صاحب المصنع) عن حجم ما أنجز من العمل، ووقف بلبل مزهواً وهو يعد عشرة آلاف طوبة.

الأفنديكو قال إن بلبل سرق الطوب المخبأ في الجزيرة، وثار بلبل، وحاول أن يفهمه أن الطوب من إنتاجه، وفي النهاية اتفق الطرفان على حل عادل، أن يترك الأفنديكو بلبل على الجزيرة، وفي اليوم التالي، إذا كان بلبل صادقاً عليه بإنتاج عشرة آلاف طوبة أخرى.

ولما حضر كان بلبل وأمامه اثنتا عشرة ألف طوية جديدة.

الأفنديكو - صاحب المصنع - صار يعمل عند بلبل، وبيت الجزيرة ملاذنا للعب كرة القدم وشي اللحم، ويحضر بلبل عندنا لمشاهدة كأس العالم، وينتظر الأفنديكو بالسيارة بالخارج، وعبثاً أحاول أن أفنعه بالدخول وهو يرفض، مؤكداً أنه في غاية السعادة، ويدير مسجل الموسيقى بالسيارة ويدخن مسترخياً، وكلما يمر أحدنا من أمامه يسأله: «بلبل سعيد؟».

كل يوم وأنا عائد في البرد، أسلك طريق الترعة، لم تكن ترعة بالمعنى التقليدي، بل مصرف لمياه الأمطار من كل أئينا، وفي الشتاء تفيض من المطر والثلج.

علي حواف الترعة كراكيب أئينا، يلقون هنا بكل زائد من البيوت، والبعض الآخر يلتقطها إن كان يريد، يتخلص أحدهم من طاقم أنتريه، ويمر آخر ليلتقط من الطاقم كرسيًا واحدًا وطاولتة، أو مرتبة.

الطريق الموازي للترعة، يبدو في الشتاء مهجورًا، وعند سقوط الثلج لا مكان للاختباء، وكنت أمرمضطرًا، أمام عيون الفتيات اللاتي يتعرين داخل السيارات، مع الشباب، ويغمزن عند رؤيتي ضاحكات من المفاجأة.

بعضهن كن يفعلن ذلك علانية، ويحمل الشاب حبيبته لأعلى صخرة، ويخلعن لممارسة الجنس.

غابات بلاكا وجبل الأكربول كانت مزدحمة بالعشاق.

والفتيات في أئينا نحيفات لوزادت الواحدة على ٦٠ كيلوما تزوجت، وفقاً لتصنيف خالتي تولا.

معظمهن يشترطن على العريس قبل السيارة، مركباً صغيراً وموتوسيكلًا، الدراجة البخارية لاختراق الأشجار والنوم معاً في الغابة، والمركب الصغير للغياب في عرض البحر، والرقص وممارسة الحب.

العجائز متعهن أقل تكلفتة، أمريومياً على ماريو، في الدور الأول، وأراه عندما يصحو، يتحدث لإصيص الزرع، وزهرة وحيدة يرعاها بعناية.

استوقفتني سولا، عائداً من المطعم في آخر الليل، بالقميص الأبيض
والكرافتة الحمراء، قالت: لا أحد يراك.

قلت أعمل في مكانين، لأجمع أكبر قدر من المال وأعود.
قالت: هذا كثير.

قلت: إنني مستعد أن أستقيل من أجل عيونها من كل أنواع العمل
وأتفرغ.
وضحكت..

وقالت: لا... لا تفعل لكن تعال؛ لنتجول قليلاً على البحر.
اتفقت أن أراها في أيام الأجازة، لنتسكع، ونأكل أبوفروة، أو
جيلاتني وندخل السينما، وذهبنا سوياً للملاهي.
قالت إنها وحيدة بلا أسرة، تعيش مع جدتها، وأنها سعيدة لأنني أهاها.
وكانت تسألني هل ذهبت لبيوت الدعارة؟ وماذا فعلت هناك.
سألتني: هل يمكن أن أذهب معك مرة؛ لأرى ما تقول، وقلت مستحيل.
لكنني اصطحبتها لشارع سنجرو، وعادت من مشاهدة الشواذ تكاد
تسقط من الضحك.

وحكت لخالتي تولا تفاصيل التضاريس المنتفخة، وعنفتني تولا.

الشتاء ثقيل، ولا يريد أن يمضي.

تجولنا على شواطئ باليو فالبيرون (فالبيرون القديمة)، ودخلنا بعض فنادقها، أحد الفنادق كان مخصصاً بالكامل للدعارة، في بهو الفندق طالعنا كاتالوجات، لفتيات شديداً الجمال والعدوية، استوقفتنا إحداهن وكانت الأعلى سعراً، طلبنا مشاهدتها، حضرت، كانت من المنيا. على البحر، يباع أبو فروة (الكستناء) المشوي على الفحم بكثافة، وأجمل مطاعم السمك، الجمبري والمحار والقشريات والسمك، في فاترينات من الثلج، وقبل دخول المطعم يمكنك تصنيف طبق كما تريد، وسمكة من كل نوع.

الشتاء يغطي رءوسنا بالكآبة، نحن من مواليد الشمس، ولم نتعود على غيابها يومين أو ثلاثة، لكنها هنا تختفي بالأسابيع.

في فبراير، كنت قد تعبت من رؤية البحر، والاشتياق لأمواجه، وفي يوم صحو، اندفعت، وخلعت ملابسي، وارتيمت داخل الماء والملح، صفرت المياه في أذني من البرد، وارتعشت، قضيت دقائق وخرجت.

لم يكن على البحر سواي، داخل البلاج الخالي في الشتاء، ومراهق ومراهقة، يتبادلان القبلات، وقد فتح قميصها وتدلّى ثديها الوليد الجميل، وهو ينظر للحلمتين، ويعود ليرتشف من شفيتها، مررت بجانبهم وارتديت ثيابي، لأترك لهما المكان خالياً.

حكيت لسولا ما قرأت عن كازانتراكس والمسيح المصلوب من جديد وزوربا اليوناني وكفافيس الشاعر اليوناني السكندري.

وقالت إنها لا تحب الأتراك.

فقلت: ولا أنا.

ونصحتها بأن تحبني أكثر من ذلك المدعو: «تاكى»، لأنه كان جباناً ويستغل طيبتها.

فقلت إنها ستغضب إن قلت ذلك عن تاكى مرة أخرى.

اعترضنا رمضان ، أمام المقهى، أنا وسولا وكنا عائدين من السينما، وهي تتأبط ذراعي وتغني: «ساغاباو ماكوس.. ساغاباو أكوس»، (حبيبي اسمعني..حبيبي شاهدني..)، وأنا أقلدها رافعاً عقيرتي.

قال رمضان: واللّه زمان يا تلموذ.

قلت: أهلاً.

اقترب وقال: وإيه الحتة الصابحة دي؟

ومد يده ناحية سولا فقفزت صارخة.

دفعته في صدره بعيداً عنها، فاستدار ولكمني في حاجبي.

تذكرت أيام النادي، وظلت شوارع «تزيفيز» يومين تتحدث عن لكمة نالها رمضان وأسقطت نصف أسنانه الأمامية، ولم أتوقف عن الضربات المتوالية في بطنه، فانكفاً ونلت رقبته تحت ذراعي وضغطت عليها، ولم أشعر إلا بمن يرفعونني من فوقه، وهو يلتقط الهواء ليتنفس بصعوبة.

كان وجهه أزرق دامياً، والدماء تسيل من فمه وحاجبي ينزف.

واستعاد الحياة بعد أن شهق مرتين وثلاثاً، وهدد بضربي بالموسى، وتوعدني بإبلاغ البوليس عني، وقلت لا يهمني؛ لأنني مسافر خلال شهر، وتوعدته بأن أقتله في المرة القادمة.

في البيت تكهرب الموقف.

وانعقد اجتماع عاجل، وحضر نبيل وبقية شباب الصعايدة،
للاستعداد لأي تصرفات ولضرب رمضان.

وجرت سولا على خالتي تولا، ونزلت لترى حاجبي، ومعها حقيبة
الإسعاف.

قالت إنني أحرق، مثل كل الرجال.

وبعد أن ضمدتني، وأعطتني حقنة لأنام، ارتدت ملابسها وخرجت.

راحت لمقهى العريجية المشتعل بالرواد.

رمضان هناك مازال ينزف ويضع القطن بين فكيه، ويشرب ويتوعد
بالانتقام.

طلبت خالتي تولا صاحبة المقهى اليونانية وواحدة من المصريين يجيد
اليونانية.

وجاءها العملاق سيد، وأوقفته على رأس رمضان.

واستخرجت من حقيبتها عدداً من قصاصات الصحف.

قالت إن هذا الرجل، المنشورة صورته في الجريدة، وهو يطارد المجرمين،
هو زوج ابنتها، وهو مدير أمن سالونيك، ويتمنى أن يخدمها.

ويمكنه الوصول لأثينا في ثلاث ساعات.

وإنها لن تتردد في القبض على كل من يتردد على ذلك المقهى، إذا
اقترب أحد من أولادها الساكنين معها في البيت، أو أبلغ عنهم الشرطة.

وتوجهت لرمضان قائلة: أما أنت فقد اعتديت على طفلة قاصر عمرها
١٧ عاماً، والبنت جاهزة للشهادة، وتلك فقط عقوبتها الحبس سبع سنوات
على الأقل.

وتركت على المنضدة صورة من بطاقتها، ومن الجرائد، للتأكد من
صاحبة المقهى مما تقول.

لمحتها على سريرى بين اليقظة والنوم، وكنت مخدراً.

قالت: هل تتذكريوم خرجت لأطلي حجارة الرصيف، مع حلول الصيف، واحدة بيضاء والأخرى سوداء؟

يومها كنت أعرف أسماءكم بالكاد وخرجتم خلفي، وأصر مصطفى أن أستريح ويدهن مع الشباب ليس رصيف بيتنا فقط بل رصيف شارعنا بالكامل.

يومها شكرني كل الجيران، وأنا صرت معروفة في كل المنطقة. قلت هامساً: أنا لم أنس.

وعقب دهان الرصيف، دخلنا بملابسنا المتسخة الحمامات، وخرجنا بالشورتات، ووقفت لأرقص معك «سلو» في حديقة البيت. قالت: أنت مجرم.

ظلت تزورني طوال الليل، وقلت لها ألا تخاف؛ لأن الصعاب لا يموتون. فضحكت.

جاء نبيل وساعدني في حزم حقائبي، وكان يروح ويجيء، بلا توقف. سولا لم تنقطع عن مراسلتي، وتزوجت وسافرت لإيطاليا، ومنها لأمريكا، وماتت جدتها، ودرست الفن.

كنت أكتب لها بالإنجليزية، وأشجع من أجل عيونها أوليمبياكوس، وأستمع بين الحين والآخر لـ«سا غاباوماكوس».

خرجت مع سولا لأودع شوارع أثينا، كان يوم أحد، وفي وقت العصر، تغرق الشوارع بالبهجة والألوان، يستحيل أن تلمح شاباً أو فتاة بقميص أو بنطال أسود أو بني أو كحلي، إنهم يرتدون ألوان قوس قزح بكل درجاتها، ويرقصون ويغنون، وأنا معهم.

وأعطيت سولا مائة دراخمة كتبت عليها اسمي؛ حتى تتذكر دائماً
أخاها.

وصعدنا جبل بلاكا عند مطعم فلاخوس وبيت أورانيا، وكان
المطعم مغلقاً في الصباح، ونزلنا من الجبل لميدان سي دغما؛ لنطار
الحمام، وأودع ليلى القبطية سمراء بورسعيد.

أعطيت ليلى لوحاً من الشيكولاتة ووردة بريّة كالمعتاد، كانت
تصبغ فمها الساحر بروج بلون الموف القاتم، ولوّنت أظافرها من شفّتها،
وقرط موف عملاق يرقص على عنقها الطويل، وذيل الحصان يعقّصه
شريط حريري موف، وبعد أن دفعت الحساب، غمزت ليلى على سولا قائلة:
ذوقك حلوقوي.. حبيبتك؟ فهمت سولا وضحكت وهتفت قائلاً: ياريت..
لكنها أختي.

وقلت ليلى إنني جئت لأودعها، ورحلت.

قبل أن أعبّر الشارع، هرولت خلفنا، واستوقفتني قائلة: "إنت ماشي
فعلاً؟؟ مع السلامة هاتوحشني.

هاشوفك لما ترجع.. مش عايز حاجة؟"

كانت قد تركت خلفها الكافتيريا والرواد.

قلت: أشوفك بخير.

قالت: لا إله إلا الله.

قلت: محمد وعيسى نبيا الله.

وضعت حقائبي في التاكسي، ونزلت سولا واحتضنتني باكية،
ورفعت عيني ورأيتها هناك، تولا واقفة عند الشرفة، هرولت على السلم
صاعداً، ولفت حول عنقي كوفية صوف كانت تصنعها، وقالت مختنقة:
«اعتن بنفسك».

بعد ربع قرن، رجعت أثينا.

بائع لفائف اللحم مع البيرة كريكوس كان الوحيد الباقي من
ميدان أمونيا.

انهدم مقهى الشطرنج العتيق، وصار مطعم فاست فود، ولم تعد
الكافيتريا تتوسط ميدان سي ديغما، وعجزت عن تحديد مكانها.»

سألته وسط صخب الميدان: هل تتذكرني؟

كنت أعرفك من ٢٥ عاماً قال: يااااه.

انتهى من الزبائن والميدان مازال ممتداً أمامنا، وجلس إلى جواري.

قلت أحدث نفسي: جرى بنا العمر يا كريكوس.

وسمعتة يحدث نفسه: أنا عجوز لكنني أعمل؛ لأنني لو توقفت لن
أجد الطعام.

وقفز طفل عراقي يتسول.

وقام الشيخ كريكوس محنياً على الطاولات يمسخها.

في مدينة كانت لا تعرف جائعاً.

على مدخل بلاكا تذكرت عجوز محطة الأتوبيس، التي كنت
أطارد أحلامها، بخرافاتي عن الزواج، لا بد أنها ماتت وتضحك الآن.

كنت قد صرت صحفياً، وحصلت على تأشيرة مميزة من الملحق
الثقافي بالسفارة.

وكان معي صديق، نصدر سوياً جريدة خاصة، وسافرنا لنبحث
إمكانية طباعتها في اليونان.

لكني كنت - بالإضافة لما سبق - أبحث عن هدف آخر.

حضر نبيل بطل الماراتون، وكان مازال يعمل، ومنحنا جارسونيرة لنقيم فيها، وبدأت أبحث عن شقيقي الضائع في اليونان.

عقب عودتي من هناك، سافر أشقائي الثلاثة لأثينا، ورجع اثنان، وتخلف الأصغر.

كانت الحياة تمضي به على عكسنا جميعاً، كان وسيماً، وقرر البقاء هناك، واشترى شقة تملك، وكانوا يتندرون لأن صاحبة العمارة تطارده للزواج منه، وبعد سنوات أرسل لوالدي ليساعده، واشترى مصنعاً للديباغة..

انقطعت أخباره تماماً، وكان والدي يزور عمتي، عندما همست بأن أحد أثرياء أسيوط سافر اليونان، وشاهد حاتم هناك.

والدي كان منهاراً، وكنت متهماً بأنني من فتح الطريق لضياعه.

الصحفي صديق الرحلة اشترط من اليوم الأول للسفر، ألا يتناول لحم الخنزير؛ ولأن كل المطاعم بلا استثناء تستخدم دهن الخنزير، صار طعامنا أنواعاً من الجبن محددة، وفاكهة وخضراوات وفولاً.

في اليوم الثالث صرخ بأنه لن يتحمل، ويريد أن يأكل لحوماً وأسماكاً والاسيغادر بلا رجعة.

استعدت أياماً قديمة.

وتذكرت ماريبا السكندرية، كنا نقطع خمسين كيلومتراً لتأكل عندها الفول بالسمن البلدي والطعمية، لكنني أبعدت الفكرة تماماً؛ لأن عمرها كان وقت أن غادرت خمسين عاماً.

كانت في ميناء بيريا، وقررت أن أذهب هناك؛ لأتحسس آثارها القديمة.

في الطريق صادفنا عمالا مصريين، سألت عن مطعم يبيع الأكل المصري، فقالوا جميعاً: اسأل عن ليلى.

مطعم ليلى، خمسون طاولة في الشارع، بخلاف طاولات بصالات المطعم المكيف، استرحت بالخارج على أحد المقاعد الوثيرة، واستراح صاحبي بعد أن قرأ قائمة الطعام، ووجدها غنية بالملوخية بالأرانب والكشك ومحشي الكرنب وكباب الحلة.

طلبت بيرة، وبعض السلطات، ومضى أكثر من نصف ساعة، فقررت أن أدخل المطعم؛ لأتعرف على نوعية الطعام واستعجال الطلبات.

عند مدخل المطعم رأيتها، وسط الزحام، ليلى البورسعيدية السمراء، تشخط وتنظر، والبعض يعاكسها، وجاء دوري.

ما زالت جميلة، برغم أنها تعدت الخامسة والأربعين، وقد عقصت شعرها ذيل حصان.

قلت لها إنني من مصر، فرفعت حاجبيها الجميلين في مشاكسة قائلة: يا مرحب؟ ما كل دول مصريين.

وكان الزبائن من حولنا، يهتفون صارخين: ليلى.. لولا، استعجالاً للطلبات.

قلت لها إنني قادم حالياً، وصحفي بإحدى المجلات فانتبهت.

وقالت: أي خدمة؟

قلت لها: أريد أن أكل.

قالت: حاضر.

قلت :كما أنني أحبك منذ ٢٥ سنة.

تنمرت كأنثى وقالت: نعم؟

قلت: وتركت عندك أمانة وردة بريئة من جبل بلاكا.

حدقت طويلاً، وصرخت.

قالت: لا تتحرك وسأعود بعد دقائق.

عادت في قمة الأناقة، وصارت منضدتنا أهم طاولة، كانت ترتدي صديرياً معقوداً برباط، يكشف عن بطنها الأسمر العاري، وينطلقون أبيض، وصففت شعرها بعناية، ووضعت قليلاً من الماكياج.

تزوجت القبطية الجميلة من فاسيلاه، هكذا قالت.

سألتها: أين هو لأقتله، فقالت ضاحكة: قاعد فوق وياريت تعمل كده.

بقيت في اليونان، يطاردها المعجبون، من كل مكان، وكنت واحداً منهم.

لكن واحداً من اليونانيين، رآها وأصيب بالجنون، فاسيلاه، ابن أحد أكبر العائلات ثراء في أثينا، لم يتحمل جمالها وطاردها في كل مكان، لكن قلب ليلي كان مستحيلاً بدون زواج وكنيسة، فتزوجها.

أنجبت خلال عامين ولداً وبناتاً، واشتعلت النار في العائلة؛ لأن ابنهم الأثير الذي تتهافت عليه بنات عائلات أثرياء أثينا، اختطفته تلك الساحرة السمراء.

عندما يضيع أحد البحارة في البحر المتوسط يقول اليونانيون إن كليوباترا اختطفته.

وإن كليوباترا أخضعت بالسحر الأسود يوليوس قيصر، ولما مات استطاعت وهي عجوز شماء أن تسحر مارك أنطونيو؛ ليهجر القتال والجيوش من أجلها، ولولا أنها انتحرت للقي أكتافيوس نفس المصير. عرضت العائلة على فاسيلاه الابن أن يطلق الساحرة المصرية السوداء، لكنه رفض.

وعرضت أن يعوضها بنصف مليون دولار؛ لترحل لمصر، مع أولادها، ويطلقها، ورفض مرة أخرى. ومات أبوه غاضباً.

وراح فاسيلاه لحضور الجنازة، مع زوجته، وفي اليوم الثالث، حضر محامي العائلة، وفتح وصية للأب، تشترط حرمان فاسيلاه وزوجته من الميراث.

لم يمرض فاسيلاه الابن - هكذا حكى ليلى - ولم يصب بذبحة صدرية، لكنه بقي في مكانه، صحيح البدن والعافية، لكنه لا يتذكر اسمه.

حملته ليلى عائداً، وعندما وضعت يدها في جيبها لم تجد سوى أصابعها.

كان عليها أن تدافع عن زوجها ليأكل، وطفليها، ولم يكن أمامها سوى بيع ساعة زوجها ومصاغها، وافتتحت في بيريا مطعماً للفول والطعمية، واحتضنها الصيادون المصريون وعمال الميناء واليونانيون المصريون المشتاقون لروائح مصر، وظل المطعم يتطور بالمحشي كرنب والصيدية والملوخية والكباب، حتى صار من أكبر مطاعم أثينا.

تراجعت للخلف، وأزاحت يديها الجميلتين ذيل الحصان، وسقط شعاع من الشمس على كتفيها البديعتين، ورفعت كأساً من الليمون، قائلة: عندي الآن ست سيارات تنقل الطعام للزبائن، وسيارتان ملاكي للولد والبنت، وكلاهما في الجامعة،

واشترت المبنى؛ لأسكن فوق المطعم.

قلت: وزوجك؟

قالت: فوق هل تريد أن تراه؟

أكلنا على حسابها، أول يوم، وصارت سهرتنا كل يوم في مطعمها الجميل.

وفي آخر أيامنا ودعتنا باكية، وقالت: اسألوا عني ولا تنسوا أختكم.

ساعدتني ليلي في العثور على شقيقي.

شكلنا فريقاً للبحث.

وبعد ثلاثة أيام اتصل أحدهم، وقال إنه جالس أمامه الآن على المقهى.

رأيته ولم أتمالك، وبكيت منهاراً.

كان أحد المتشردين في الشوارع.

يطلق شعره حتى ركبتيه، ويرتدي بنطلوناً ممزقاً، وحذاءً من نوعين

مختلفين بكل قدم.

وفاجأته بوجودي.

تحدث بلا مشاعر، رافضاً أن يعود لمصر.

باع المصنع والشقة التمليك، ولم يتزوج، وبدأ ينقطع عن العمل،

وعجز عن سداد إيجار المسكن، ونام في الشوارع.

كنت قلقاً، واصطحبته لبلاج فولاً، لأرى جسمه، كان يبتلع

مشروب العصير بصعوبة، ويدخن بشراهة، ولم يكن على جسمه آثار

حقن، وهو ما كنت أخشاه.

طلب مبلغاً من المال، وأخذه بدون شكر، وانصرف.

رجعت لليونان بعدها بثلاث سنوات أخرى.

كان نبيل بطل الماراثون قد عاد لأسيوط، نائماً على ظهره، مصاباً بتباعد في فقرات العمود الفقري، يمنعه من الحركة.

رأني بعد أن جئت مهرولاً للمستشفى فقال: نفسي أجري.

أما شقيقي فقد قبضوا عليه، بتهمة التشرد والتهرب من سداد الضرائب،

واتصلت باليونان؛ ليسدد أحدهم تكاليف ترحيله للقاهرة، وقص شعره واستحمامه.

وقضيت منذ وصوله مطار القاهرة ثلاثة أيام من العذاب، أتابع الترحيلات من سجن لآخر، وأمن الدولة يشك أنه من عناصر القاعدة، حتى أطلقت سراحه في أسيوط.

وخرج قائلاً: إن أحداً لم يجامله؛ لأنه حضر ضعيفاً على نفقة الحكومة المصرية.

كنت عندما سافرت للمرة الثانية رئيساً للاتحاد المصري للشطرنج، وأرسلت جواز سفري مع أفراد البعثة المسافرة لبطولة العالم للشطرنج في بورتو كاراس، وتعثرت إجراءات الحصول على التأشيرة، وكانت اليونان منضمة حديثاً للاتحاد الأوروبي، وأخبرني مدير الاتحاد بالموقف، وذهبت للسفارة وأخبرت الموظف المختص أن هذه المعاملة لا تليق، ويبدو أن هذا أغضب القنصل التي كانت تتابعنا من كاميرات المراقبة، فخرجت غاضبة.

قالت إن أوراقنا ناقصة، وأنها لا تصدق أننا بعثة رياضية، وتريد ما يثبت ذلك.

وقلت إن قرار سفرنا موقع من رئيس مجلس الوزراء كبعثة رسمية، وجوازات السفر، بنفس الأسماء الموجودة في قرار الدولة، فقالت إنها لا تعترف بذلك وتريد اعترافاً بذلك من اليونان.

خاطبت الجهة المنظمة للبطولة في اليونان، وأرسلت ما يفيد أننا ممثلون لقارة إفريقيا، في بطولة العالم.
وكان الوقت يمضي.

وقبل السفر بعشر ساعات أخبرتنا أنها وافقت على منح التأشيرة لأربعة لاعبين ورفضت الباقين.

وكان هذا معناه أن يسافر نصف الفريق بلا مدربين ولا إداريين وألغيت السفر.

عقدت مؤتمراً صحفياً بالاتحاد، عن منع بعثة مصر الدولية من السفر لحضور بطولة العالم في الشطرنج، ونشرته جريدة الأخبار وجريدة الأهرام.
وتدخلت القنصل من خلال أحد معارفها الفاسدين في جريدة الأهرام، ونشرت تكديباً لما نُشر، وادعت أنني لم أقدم ما يفيد أنني أعمل صحفياً، وأنني بلا عمل ولهذا رفضت التأشيرة، برغم أن جواز السفر مكتوب بداخله المهنة.

بعد شهر وبالمصادفة، جاءت بطولة العالم للكبار في اليونان، فحملت أوراق البعثة لوزارة الخارجية المصرية، مرفقاً بها تقريراً بما حدث للبعثة السابقة، وردود القنصل الكاذبة، وأرسلت الخارجية رسالة للسفير لإنهاء الإجراءات وإبلاغها بالقرار.

وأسقط في يد القنصل المتعجرفة.

وطلبت إجراء مقابلات على حدة مع كل عضو من البعثة.

وعندما جاء دوري حضر السفير، وكان ضخماً ووسيماً.

وسألني: هل أنت صحفي؟ وكانت هناك مترجمة حاضرة، فقلت:
نعم، قال: وما الذي يثبت ذلك؟

قلت: المهنة موجودة على جواز السفر.

وقدمت له عدة جرائد ومجلات عليها صوري، كرئيس تحرير ومدير
تحرير لعدد من المجلات والجرائد.

فسأل المترجمة.

ولما أوضحت له طبيعة عملي بوضوح، أضفت أن المسافرين بعضهم
أبطال للعالم للشطرنج تحت ٢٠ سنة، واستخرجت بعض المجلات الأوروبية،
التي تشير لذلك، وطوّح بيديه في الهواء، وكان من الواضح أنه صدقني تماماً
ومستاء من تصرفات القنصل.

بعدها انتصب واقفاً؛ ليتحدث معها باليونانية، وقال إنه لا يريد
مشاكل، وأن من الواضح أنها تعنتت في منع التأشيرة الأولى، وأن كل ما
قالته بشأنها غير صحيح.

استوقفته باليونانية معترفاً.

صاح متراجعاً: واووو تتحدث اليونانية؟

قلت: نعم قليلاً، أتحدث اليونانية وأشجع نادي أولمبياكوس.. وأحب
نيكوس كازانتازاكس وأنديوس بابا اندريو والخورياتيكي (السلطة
اليونانية) والبوزوكي وموسيقى زوربا.. وتيودراكيس، وعموماً أنا
أسف لمقاطعتك.. لكنني رأيت أن من غير اللائق أن أظهار بأنني أستمع
للغة لا أفهمها.

فصاح: لا.. لا....

وزمجر ناحية القنصل وهمهم غاضباً: .. كازانتازاكي..
تيودراكيس... أولمبياكوس..

وصافحني بحرارة وخرج.

جلست القنصل تتفحصني، كمصيبة، هبطت عليها من السماء،
وكنت حريصاً على أن أنظر نحوها مستهيناً بوصفها ساقطة.
كانت ما زالت كما تركتها: قصيرة وشريرة وماكرة.
سألتي خائبة: هل أنت صياد؟

وفهمت ما تقصد؛ لأنها تقصد أنني أحد عمال عزبة البرج الغلابة الذين
يزدحم بهم ميناء بيريا.
فقلت: لا.

قالت: وكيف تعلمت اليونانية؟

قلت: كنت أسافر كثيراً هناك، وفي بلدنا كان هناك جرسون
يوناني يدعى خارا الامبو، نحبه كثيراً، لأنه مصري، وتعلمت من ابنته
اليونانية.
فاحتقنت.

وبعد نصف ساعة حصلنا على التأشيرات.

في مطار أثينا كان الفريق رجلاً وأنسات معي، ووسط الزحام، صرخت
باليونانية على ضابطة شرطة، قائلاً: ساعدينا يا جميلة، فابتسمت،
ونقلتنا على ماكينة خارج الطابور، وأنهت إجراءاتنا في دقائق، وقالت في
أريحية يونانية جميلة: مرحباً.. مرحباً.

كانت روائح السوفلاكي والأوزو ونسائم باليو فالبيرون ودفء بيوت
كاليثيا وأيام تزييفيز تنطق من بين عيونها، وأنا أداعبها بأننا أبطال
العالم في الشطرنج، وأنها ضابطة شرطة، لكننا لا نخافها لأن لدينا
أحصنة وملوكاً وعساكر وفيلة، فانبعثت ضاحكة، وتطايرت نسائم
شعرها الذهبي، وقالت: أراكم وأنتم فائزون، بالتوفيق.

عند العودة لمصر، رجعنا من سالونيكى لمطار أثينا، وكان أمامنا ترانزيت ١٢ ساعة للطيران للقاهرة، ووقفت مهزوماً لنصف ساعة، وفي النهاية لم أتحمل وتركت حقائبى مع المدرب وهربت من المطار. بحثت عن تاكسى، واستوقفت أحد العابرين لأسأله عن اتجاه سوق مونستراكي.

سأل في دهشة: ولماذا تركب من هنا؟ عليك بالمetro من داخل المطار. حملني metro الفاخر كالسهم، لوسط المدينة.

لم يعد في أثينا ذلك metro الخشب القديم، وفهمت وفقاً للخرائط، أن هناك سبعة خطوط جديدة لmetro الأنفاق.

في سوق مونستراكي، كانت الشوارع خالية، لم تعد هناك دراخما، وسألت عن تي شيرت وكان سعره لا يقل عن ٤٠ يورو، وشبشب وكان سعره ثمانين يورو وانصرفت حزينا، كانت الأسعار في اليونان ثلاثة أضعاف ألمانيا، والمدينة تنن تحت وطأة اليورو. خرجت من السوق وكان الباقي عشر ساعات.

لاح من بعيد مدخل جبل بلاكا، صعدت نحو الأكروبول،

كل المطاعم والبيوت القديمة انهدمت، وصعد مكانها عمارات ودكاكين تبيع منتجات الصدف والعظم والتذكارات للسائحين. ذمرت بلاكا،

كان بيت أورانيا، من دور واحد وتنساب من سور حديقته الصغيرة روائح شجرة الياسمين الوحيدة، ويسهرون في الصيف على سطحه للاستمتاع بالهواء الجميل، وأثينا تحت البيوت تتلأأ من بعيد،

نسفت السنين معالم المكان، وصعدت يائساً، وفوجئت بأن «فلاخوس» مطعم الفلاحين مازال منتصباً.

توقفت في مواجهته، ولم يكن هناك أثر لبیت أورانيا.
على باب المطعم كان هناك شاب في الأربعينيات، لاحظ تأملي
للمكان، قال: أي خدمة.

قلت: أسأل عن مانولي؟

فقال: مانولي من؟

قلت: صاحب المطعم.

فقال: أنا صاحب المطعم.

قلت: أنا أسف هل تعرفه؟

قال: لا.

قلت: مانولي أخو كوستا.

قال: لا.

قلت: ربما يكن مانولي باع المطعم لشخص قبلك.

قال: لا.. لم يكن المالك قبلي اسمه مانولي.

صعدت مع جموع السائحين نحو الأكربول.

وتذكرت اعرف نفسك.

وبيت صموئيل وإيلين.

وقبلات أورانيا، وأغنيات المساء.

ورجعت متدحرجاً لألحق بالطائرة.

استوقفني في الزحام أحدهم، ليسألني: هل وجدته؟

قلت: من؟

قال: مانولي.

قلت: مانولي من؟

قال: صاحب المطعم.

انتبعت إلى أن محدثي صاحب المطعم الجديد.

قلت: لا.. شكراً.

غادرت إيلين اليونان، ورحلت مع طفلتها وصموئيل لهولندا، وزارتي بعدها بعشر سنوات في أسيوط، وكانت قد استقرت في إندهوفن حيث مصانع أبيها للسفن،

وكانت مبهورة بالنيل.

وحرصت على زيارة شقيقتي البنات ومشاهدة البوماتهن.

وذهبت معها لبيت عائلة زوجها في طهطا، وفي الليل سمعنا طلقات رصاص، ولما عرفت أن هناك فرحاً أصرت على الذهاب، وجلست مستمتعة برؤية بنات الفلاحين بملابسهن المزركشة.

قالت: لماذا هن ملابسهن زاهية هكذا؟

فقلت: لأنهن لا يعرفن غير الحزن، ويرتدين السواد طوال العام.

قالت: هل مازال الرجل في الجنوب يغتصب المرأة بأصابعه؟

قلت: نعم أحياناً.

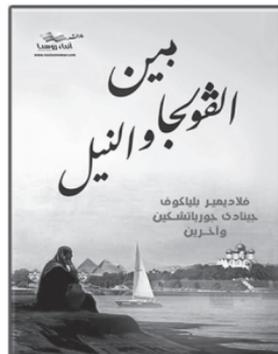
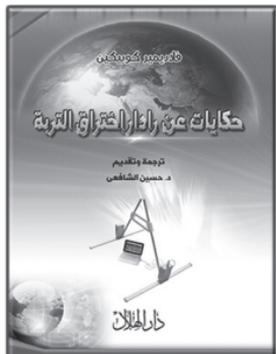
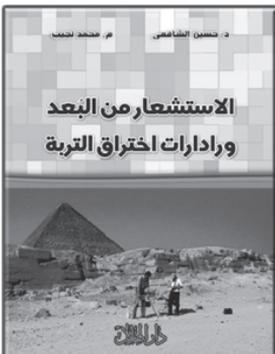
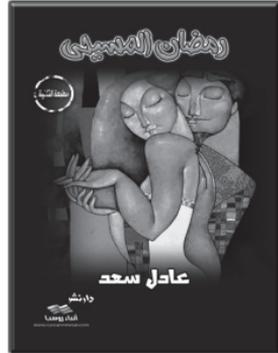
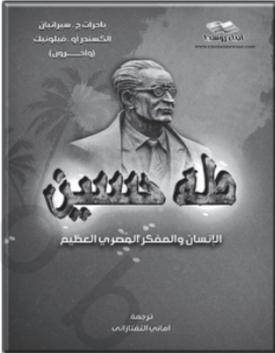
وفي منتصف الفرح رأت المنديل والدم وقفزت صارخة.

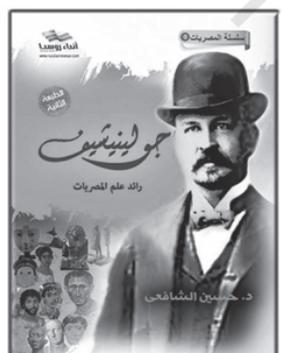
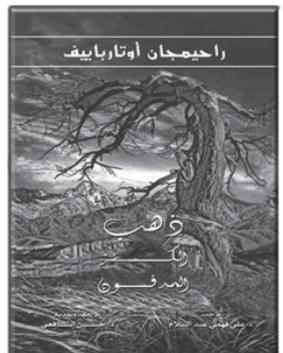
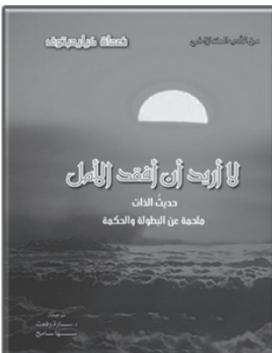
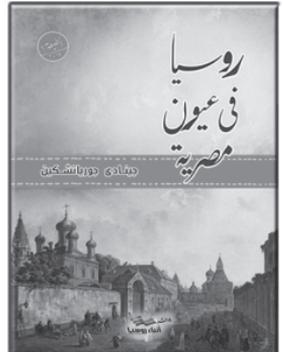
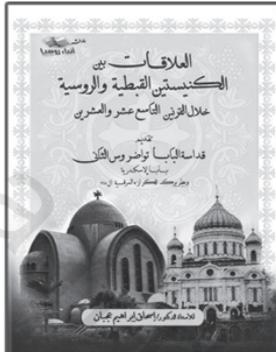
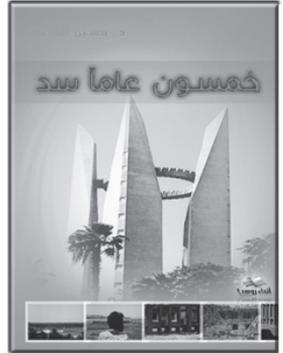
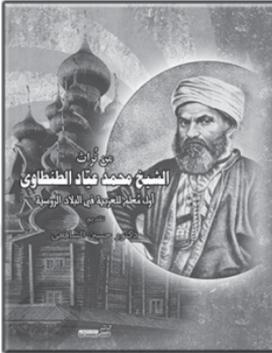
- صموئيل صموئيل.

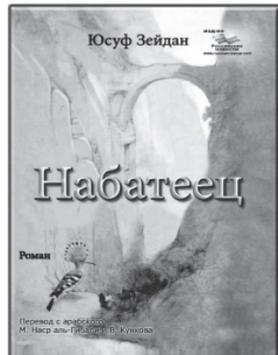
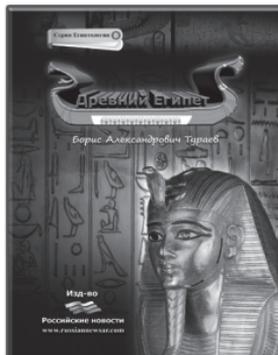
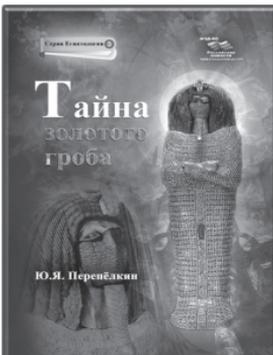
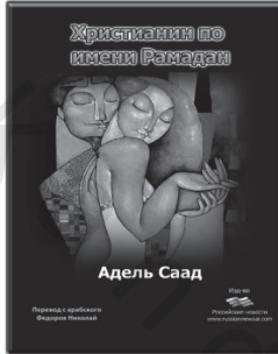
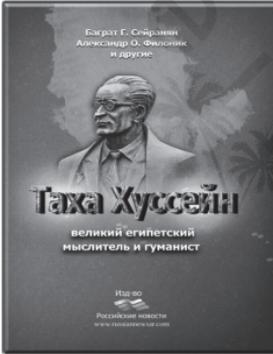
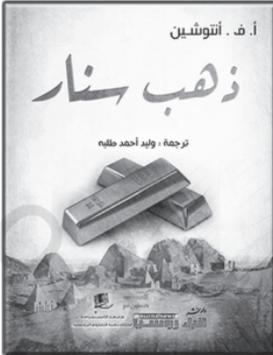
ولما رجعنا للبيت قال صموئيل:

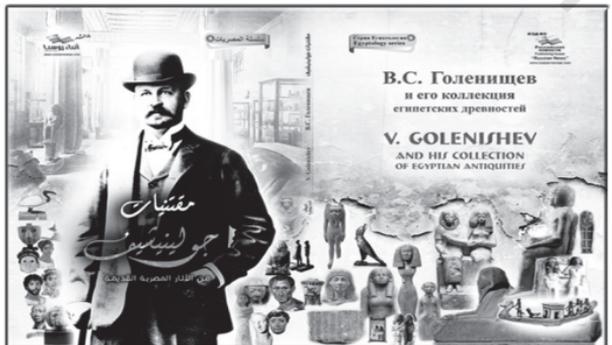
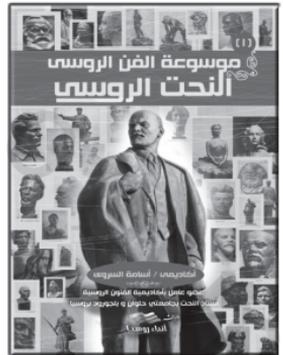
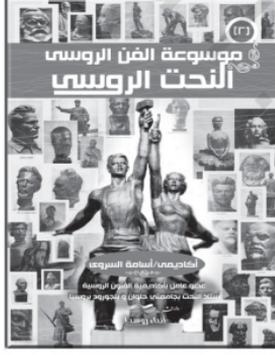
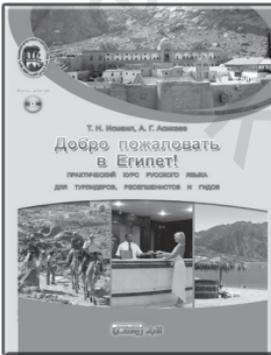
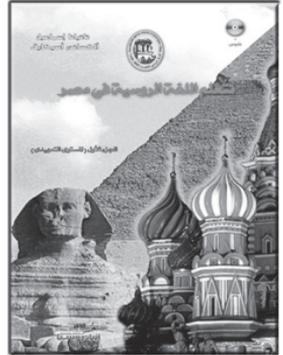
أنت هاتوديني في داهية.

وفي الساعات الأخيرة تذكرت خالتي تولا.
نزلت كاليشيا، وتجولت وحيداً، بالقرب من السينما والشارع التجاري.
وكانت تزييفيز، على بعد محطتين، وتذكرت ملامحها جيداً.
كانت لا تبكي أبداً..
لكنها احتضنتني باكية.
وقلت لها إنني سأرجع..
لأسأل عنها..
وكنت أعرف.. أنني لا أكذب.
وها أنا ذا أفعل، وأسأل عنها.
كنت خائفاً أن أعرف أنها ماتت، تركتها وعمرها سبعون عاماً،
ومضى ثلاثون سنة، وكنتم أراها من بعيد.. في ذلك المكان.. مازالت
هناك..
خالتي تولا.









دار نشر



www.russiannewsar.com

والمؤسسة المصرية الروسية
للثقافة والعلوم



www.a_rfcs.org

رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير
د. حسين الشافعي